

الباب الرابع

الأسلوب والكتاب

الفصل الأول

تمهيد

ذكرنا في الباب الثالث كيف يختلف الأسلوب باختلاف الموضوع وقد رأينا أن ذلك الاختلاف اللفظي إنما كان ظاهرة محتومة لاختلاف طبيعة الفنون الأدبية من حيث عناصرها المعنوية أولا، وغاياتها التعليمية أو التأثيرية أو كليهما ثانيا ، فكان لكل من المقالة ، والقصيدة ، والخطابة ، والرواية أسلوب خاص وانتهى بنا القول الى صحة هذه الكلمة المأثورة : الأسلوب هو الموضوع .

وهنا نقول في ناحية ثانية هي اختلاف الأساليب تبعا لاختلاف المنشئين سواء أ كانوا كتابا أم خطباء أم شعراء أم مؤلفين الى غير هذا ، فالموضوع هنا واحد - - خطابة أو كتابة أو شعر - - ولكن الأشخاص يمتددون ، فإذا بالأسلوب يختلف في الفن الواحد باختلاف هؤلاء الأدباء إذ نرى لكل منهم طابعا خاصا - - في تفكيره ، وتعبيره ، وتصويره - - ممتازا به من الآخر في هذه العناصر وقد يصح لنا بعد ذلك أن نقول مع القائلين : الأسلوب هو الكاتب ، أو هو الرجل الى نحو ذلك من العبارات .

ومع هذا ، فينبغي ألا ننسى أن المرجع الأول لهذين النوعين من اختلاف الأسلوب هو نفس الإنسان ، وما يعرض له من دواع يشيء فيها الأدب ، فإذا أردنا بيان ذلك في الفنون الأدبية رأينا أن الأديب بنفسه يعتمد على عقله ، لشرح نظرية علمية ، أو مسألة اجتماعية أو قاعدة قانونية ، فهو في هذه الحالة منشئ المقالة (كاتب) ومرة أخرى تجده نفسه منفعلاً بآثار العاطفة يتغنى آماله وآلامه بهذه اللغة الموسيقية الخاصة فإذا به شاعر ، ومرة ثالثة يلجأ إلى العقل والعاطفة معاً للاقتناع والتأثير مستعيناً بجسمه ومظهره الحسي فيكون خطيباً ، وأسلوبه الكتابي يخالف الشعري ، وكلاهما غير الخطابي ، وهكذا تتشكل النفس أشكالاً شتى ، فتصدر عنها فنون متباينة لكل أسلوبه الخاص وغايته الممتازة ، فالشخص واحد والفن مختلف . وإذا أردنا بيان ذلك بالنسبة للأديب عكسنا الوضع فالفن واحد ، ولكن الأشخاص يتعددون . وبذلك نجد لهؤلاء الأدباء آثارهم المتباينة في تكليف الأسلوب تبعاً لما يمتاز به كل أديب في عقله وشعوره ، وخلقه ، وثقافته ، ومذهبه في الحياة . وبناء على ذلك يستطيع قراء الأدب أن يتبينوا في الفن الواحد ، وفي الموضوع الواحد من الفن أساليب مختلفة في الكلمات ، والصور ، والعبارات ، وفي طرق التفكير ولون المزاج ومستوى الرقي والتهديب ، وخلاصة ما ذكر هنا تنتهي إلى أمرين اثنين : —

الأول : أن مقتضى الحال — أو الدواعي — يحمل الإنسان على اختيار الفن الأدبي الذي يؤدي به ما يشاء ، رسالة ، أو مقالة ، أو خطابة أو قصيدة ، فيسلك في أسلوبه مسلكاً خاصاً هو هذه العبارات اللفظية التي تلائم فيه ، وقد مضى القول في ذلك .

الثاني : أن الأديب - في حدود هذا الفن ، ومع التزامه خواصه
الأسلوبية العامة - يطبع الأسلوب طابعاً آخر ممتازاً ، وخاصاً به هو ، بحيث
لا يتوافر لصاحبه في نفس الفن أو الموضوع ، وبذلك يتحقق للأسلوب
ميزتان : ميزة عامة من حيث هو خطابة أو شعر أو كتابة وميزة خاصة
من حيث هو أثر لأديب ممتاز ، فالخطابة لها خواصها الأسلوبية العامة
التي ذكرت ، وخطابة الحجاج لها فوق الخواص العامة ، ما يمتاز به الحجاج
في مزاجه ، وخلقه ، ومذهبه في الحكم ، وكلماته ، وعباراته . والشعر كذلك
ذو أسلوب مميز بالوزن والقافية والموسيقا وغيرها . ولكن المتنبي مثلاً
له في أسلوبه - زيادة على ذلك - خواص في التفكير والتعبير ، والسلوك
تفرقه عن أبي تمام والبحتري والمعري . والكتابة أسلوب خال من قيود
الشعر وتقاليد الخطابة . أما الجاحظ مثلاً فيمتاز مع ذلك بلوازم في تعبيره
وتصويره . واسهابه لا تراها عند البديع مثلاً ، ولا ابن العميد ، ولا ابن
خلدون . والامر واضح في الكتاب المعاصرين . فكل من طه حسين .
واحمد امين . والعقاد . والمازني . والبشري . له ميقاته في تفكيره وتعبيره ،
وطريقة عرضه الآراء ، وطابع أسلوبه العام من الوضوح . والقوة والجمال
على أن هذه الميزات - أو الشخصية الأدبية - لا تكون فردية فقط
بل تكون كذلك اجتماعية . فنجد المصير الواحد من المصور الأدبية له
طوايع عامة شائعة بين أدبائه ، منها تتكون ميقاته الأدبية ، أو شخصيته
الأسلوبية التي يخالف بها سائر المصور . ونجد الشعب الواحد له خواصه
الأدبية التي تفرقه من شعب آخر يوافقه في لغته ، وجنس أدبه .

فالمصير الجاهلي له شخصيته الأدبية التي تتلخص في أنها صحراوية

بدوية ، خشنة ، جاهلة ، مضطربة ، ذكية ، تعتمد على الحس اكثر من غيره ، وتشق عناصرها الخيالية من المغاوز العريضة ، والجبال الشامخة ، والوعول الممتعة ، والظباء النافرة ، والابل الصابرة ، والخليل السابقة ، ومن الخباء والأطناب والأوتاد ، والنوى والأحجار ، فكان الأسلوب اللفظي لذلك جزلا ، قويا ، ضخما . فيه جناء الصحراء وسذاجة البداوة ، وطبيعة الارتجال . نعدده غريبا عنا وإن كان لهم مألوفنا . والعصر العباسي ذو أدب حضري ، مترف ، مثقف . هادى ، مستقر ، يعتمد على العقل المفكر ، والعلم الكثير ، والمزاج الرقيق ، والحياة الخمسة الناعمة ، والبيئة الاجتماعية المنظمة ، ففاض الأدب بالمذاهب الدينية والفلسفية ، وامتاز بالتنسيق والعمق ، واعتمد على الطبيعة الجميلة ، والأزهار الناضرة ، والقيان الفاتنة ، ورق أسلوبه ولانت عباراته ، فكان أدبا حضريا مهنيا ، على العموم .

وعصرنا الحديث له طابعه العام في الأدب كذلك ، يترأى في هذا الجهاد المناوئ ، والنهضة النشيطة . وحرية التفكير والتعبير ، والتأثر الشديد بالآداب الأجنبية ، والحضارة الغربية . والتجديد في إنشاء الأدب ودراسته والتخلص من التقليد ، وبلوغ النثر أسمى منزلة ظهر بها في تاريخه حتى رأينا الأسلوب دقيقا ، حرا ، واضحا ، جميلا ، يقصد إلى خدمة المعاني والأفكار وحتى صار الأدب علميا موضوعيا طريفا مشاعا بين الطبقات .

كذلك الشأن في الأمم ، فمنذ القرن الهجري الرابع أخذت الأقاليم الإسلامية التي فتحها العرب . ونشروا فيها اللغة ، والدين ، والأدب العربي تسترد حريتها وتبعث قوميتها ، وتحيا حياة مستقلة عن بغداد ، فأخذ الأدب نفسه يتأثر بذلك وظهر في كل إقليم بمظهر متماز ، متأثرا في هذا بتاريخ

هذه الأقطار ، وطبيعتها ، وخواص شعوبها الوطنية ، وما توافر لها من نظم الحكم ، وأحداث السياسة ، وأنواع العلوم والفنون ، وما كان لها من ترات لغوى أدبى حتى كان الأدب العراقى ، والأدب المصرى ، والأدب الأندلسى ، والأدب الفارسى كما هو معروف فى تاريخ الأدب العربى .

وذلك مشاهد بينا الآن ، فالأدب العربى ، يعيش الآن فى مصر والشام والعراق والمغرب وبلاد العرب ومهاجر أمريكا . ومع ذلك نجده فى كل من هذه الأقطار يخضع لثقافة أهله ، ويثثهم ، وأحوالهم السياسية والاجتماعية ، ودرجتهم فى الرقى .. ويتأثر أسلوبه اللفظى بذلك إلى حد كبير . ولعل الأسلوب فى مصر أقواها وأرعها وأخصبها جميعا ، لما أتيح لها من معاهد كبيرة ، ومكاتب كثيرة ، ودراسات منظمة ، وعناية بالثقافة شاملة . أما اللغات العامية فى هذه الأقطار فالاختلاف فيها أوضح وأوسع مدى ، لخضوعها للحياة الموضعية ، واختلاف الطارئى على كل قطر ، وتباين نظام الحياة ومشاهدها ، وعدم خضوعها لوحدة عامة مشتركة بين هذه الشعوب . ولولا هذه اللغة الفصيحة العامة التى توحد بين الأساليب العربية فى التأليف العلمى والانشاء الأدبى لكان اختلاف الأدب قويا وضعف التفاهم بين المتأدبين كما ضعف بين العوام فى هذه البلاد المتباينة .

الفصل التالى

الأسلوب والشخصية

كيف يختلف الأسلوب فى الموضوع الأدبى الواحد ؟ ذلك راجع إلى اختلاف الأشخاص الذين يتناولون الموضوع ، أو اختلاف الشخصيات . ما الشخصية ، وما عناصرها ، وكيف تختلف باختلاف الأفراد ؟ وما مظاهر هذا الاختلاف فى الأدب ؟ ذلك ما نحاول بيانه فى هذا الفصل وما يليه .

الشخصية ^(١) ما يميز الفرد من سواه ، أو هي مجموع الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التى يتصف بها الإنسان ، أو هي الميزات التى تفرق الشخص من الآخر خيرة كانت أو شريرة ، فالتمارين قائمة على هذه الخواص التى نجدها فى فرد ولا نجدها فى غيره كما هى فى الأول . وتكون خلقية كالصدق ، والشجاعة ، والكرم أو ضد ذلك . وعقلية كالذكاء ، وصحة الاستنباط ، وعمق التفكير أو عكسها ، وجسمية كاعتدال القامة ، وقوة البنية ، وحسن الهيئة ، أو ما سواها وتكون اجتماعية كالإيثار . والتعاب والطاعة . ومزاجية كالدموى والسوداوى ، والبلغمى والصفراوى إلى غير ذلك مما يدخل فى تكوين الإنسان ويميزه من سواه . وكثيراً ما تنجلي قوة الشخصية فى الذكاء ، والجاذبية ، والحكمة ، والصراحة ، والثقة بالنفس ، والشجاعة ، وقوة البيان من تلك العناصر التى تدعو إلى المحبة والاحترام . وتسمو بصاحبها إلى ذروة المجد فى هذه الحياة .

والناس يختلفون في الشخصية بين قوى وضعيف ، نابه وخامل ، نابت ومتقلب ، جبار صارم ورقيق وديع ، مبتكر نشيط ومقلد بليد . وقد حفظت الأخبار التاريخية بعض الصفات التي غلبت على سواها وكانت رمزاً لشخصيات أصحابها كعدل عمر ، وكرم حاتم ، ودهاء معاوية ، وجبروت الحجاج ، وشجاعة عنترة . وتكون الشخصية للرجال والنساء ، والمتعلمين والجهال ، والأخيار والأشرار ، وللافراد والشعوب ، كالنظام الألماني ، والثقة بالنفس الانجليزية ، والفكاهة المصرية ، والجندي التركية وهكذا .

والأدب معرض لظهور الشخصية واضحة ، فمن المقرر أن العاطفة هي التي تميز الأدب من العلم ، وهي التي تبتث فيه الخلود ، وتشربه شخصية الأديب^(١) . ففي ديوان الشاعر — مثلاً — تجد مزاج الأديب ، وطبعه وخلقه ، ومذاهبه في الحياة ، ومستوى ثقافته ، وظل روحه ، ونظرته إلى الحياة ، وتفسيره للأشياء تفسيراً أدبياً خيالياً أو فلسفياً ، كذلك تعرف نوع كلماته ، وجمله ، وطريقة تصويره وتعبيره . ولست تجد اثنين يتفقان في كل هذه الخواص أو جنسها ، كما وكيفاً ، إذ كل انسان أمة وحده فيما يصله بالحياة متأثراً ومؤثراً ، ذلك لأنه شخصية وحده فطرها الله متميزة ، وكوتتها ملابسات بعينها ، فاستقامت ذات طبيعة محدودة ، وخطة خاصة ، وكانت هي هذا الفرد الممتاز . ونتيجة ذلك أن الأديب حين يعبر عن شخصيته تعبيراً صادقاً يصف تجاربها ، ونزاعاتها . ومزاجها وطريقة اتصالها بالحياة — ينتهي به الأمر إلى أسلوب أدبي ممتاز في طريقة التفكير والتصوير

والتعبير ، هو أسلوبه المشتق من نفسه هو : من عقله ، وعواطفه . وخياله ولفته ، تلك العناصر التي لا تنوافر لغيره من الأدباء . ومن ذلك تسكّر الأساليب بعدد الكتاب والمنشئين . فالجاحظ^(١) — مثلاً — كاتب متعمق مستقص يلح وراء المعاني ، والأوصاف والخواطر لا يترك منها شيئاً ، يطوّع اللغة لعقله وشعوره وخياله فيوردها ألفاظاً دقيقة ، ويردها جلاً مزدوجة مقسمة ، ويسهب فيها بعبارات موسيقية فيأضه حتى يشتفى ، بجدة فيبلغ من التحقيق والاحاطة جهد العقول ، ويهزل عابثاً ، وخيشاً ما كرا ، يبكي ويسخر ما شاءت له براعته ، ومرونته الخلقية والدينية حتى كأن الجاحظ هو الدنيا جميعاً . وابن خلدون — في مقدمته — كاتب عالم وشيخ وقور ، معنى بالأسباب والتأثير ، ذو عقل رياضي يعرض النظريات ويأخذ في إثباتها بعبارات متشابهة لا تخلو من الأكلاف اللفظية ، والركاكة الموسيقية ، فليس في روعة الجاحظ ولا صفائه واستفاضته ، ولا فكاهته وعبثه الماكر . وطه حسين^(٢) متأثر بالجاحظ في أسلوبه ، لا يهجم عليك برأيه فيلقيه للقاء الأمر ، وإنما يلقاك صديقاً لطيفاً . ثم يأخذ بيدك أو بعقلك وشعورك ويدور معك مستقصياً المقدمات محلاً ناقداً يشركك معه في البحث حتى يسلمك الرأي ناضجاً ويلزمك به في حيلة واحتياط ، ثم يتركك ويقف غير بعيد متحدياً لك أو ضاحكاً منك . وذلك في عبارات رقيقة عذبة ، أو قوية جزلة ، فيها ترديد الجاحظ وتقسيمه : فاذا قصّ أو وصف أخذ عليك أقطار الحوادث والأشياء . ودخل الي أعماق الشعور

١ — اقرأ الحيوان والبلاء والرسائل ٢ — اقرأ في الادب الجاهلي وعلى هـ مش
السيرة والايام . وحدت الاربعاء ومن بعيد .

وجوانب النفوس مدققا ، متقصيا يخشى أن يفوته شيء . ولا يخشى الملل في شيء ، دقيق الشعور صافي النفس ، نبيل الجدل حاده ، يسير مع خصمه بعقله حتى إذا آانس منه الغضب أو التدلي تركه وانصرف . وأما احمدامين^(١) فرجل يريح قراءه ، ولا يندمج فيهم ، يعرض أدلته ، ويستأثر باستغلاها وينتهى الى نتائجها ، ويقدمها اليهم مستوية ناضجة بأسلوب واضح كل الوضوح ، دقيق كل الدقة ، ثم يعتكف دونهم ، ويغلق في وجوههم الباب . يلتقى الحياة بعقله أكثر من قلبه ، ويقف منها على أرض من الحديد . يؤمن بالحقائق ، ويؤديها بلفظها كما تعرفه الحياة الاجتماعية الواقعية ولو تورط في العامة لأنه مفتون بالاستعمال الاقليمي ، وتأثير الجوفى العبارات والتراكيب .

هذا والمشيبي في رأى المعري أزهار الرياض وزينتها : —

والشيب أزهار الشباب فماله يخفى وحسن الروض في الأزهار
ولكنه في رأى الشريف الرضى سيف مصلت على الرءوس تحمله
بدون عناء : —

غالطوني عن المشيب وقالوا لا تسرع ، إنه جملة حُسام
قلت : ما آمن من على الرأس منه صارمُ الحسد في يد الأيام
ذلك لأن المعري فيلسوف حكيم يعرف الدنيا ويقبل قوانينها
الطبيعية مهما يضر في نفسه من سخط واستياء ، ولكن الشريف محب
للحياة ، حريص على الشباب ، متصل بالنعيم فلما أنذره المشيب فزع
وارتاع وتوقع النازلة .

ومهما يكن من تأثير الوراثة أو التربية في تكوين الشخصية ، (١)
فانا نستطيع هنا أن نذكر بعض عناصر الشخصية وما قد يكون لها من
أثر في الأسلوب :—

(١) الطبع ، فالريق الطبع ترق ألفاظه ، وتسهل فقره ، وتلين عباراته .
والخشن الجافى تجزل ألفاظه ، وتوجز جملة ، وتقوى تعابير . إذ كانت
الطبائع تجذب إليها من التراكيب والألفاظ ما يلائمها رقة وجفاء كما تجده
عند المتنبي والبحترى ، وعند جرير والفرزدق ، والمعقاد والمازني ، قال القاضي
الجرجاني في ذلك : « وقد كان القوم مختلفون في ذلك ، وتباين فيه
أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم
ويتوعر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ،
فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ،
وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافى الجلف
منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام ، وعز الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت
ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته » (٢) .

(٢) أثر البيئة ، فابن البادية المقيم في الفلاة حيث يرى الجذب
الغالب ، والطبيعة القاحلة الجرداء ، والجبال الشم ، والصخور الجامدة ،
والوعول الممتعة ، لن يكون كابن الحاضرة المترفة الخصبية يلقي العيش رقيقا
والملبس ناعما ، والمزارع ناضرة ، والاخوان ظرفاء ، إذ أن ذلك يطبعهم
الذوق والشعور بطابعه ، فلا يقع اللسان إلا على كفائه من العبارات ، فما كان
عدي بن زيد والمنخل يشكرى كطرفه بن العبد والحارث يشكرى ويقول

الرجاني في أعقاب كلامه السابق : « ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ، ورجز رؤبة وهما آهلان للملازمة عدى الحاضرة ، وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب . . . فلما ضرب الاسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي إلى القرى ونشأ التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه ، وأسهله . . . وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمجوا ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الركائز والمجسمات وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق فاتتقلت العادة وتغير الرسم ، وانتسخت هذه السنة . واحتذوا بشعرهم هذا المثال وترفقوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم اللطف ما سنع من الألفاظ فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول تبين فيها اللين ، فيظن ضعفا ، فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورواقا ، وصار ما تخيلته ضعفا ، رشاقة ولطفا . . . ومن شواهد آثار البيئتين في الأفراد واستعالتهم ما روى أن شاعرا بدويا قدم حاضرة عامرة فأكرمه صاحبها فمدحه بهذين البيتين : —

أنت كالدلو لا عدمنك دلوا من كثير العطايا قليل الذنوب
أنت كالكلب في الحفاظ على الود وكالتيس في قراع الحروب
فهم بعض أعوان الأمير بقتله ، فقال الأمير : خل عنه ، فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده ، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنا ، وقد لا نعدم منه شاعرا مجيدا ، فما أقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق ، ونسبت إليه الأبيات : —

يَا مَنْ حَوَى وَرَدَ الرِّيَاضَ بِخَدَمِهِ وَحَكِي قَضِيبَ الْخِزْرَانِ بِقَدِّهِ
دَعُ عَنْكَ ذَا السِّيفِ الَّذِي جَرَّدَتْهُ عَيْنَاكَ أَمْضَى مِنْ مُضَارِبِ حَدِّهِ
كُلَّ السِّوْفِ قَوَاطِعِمْ إِنْ جُرِّدَتْ وَحُسَامُ لِحْظِكَ قَاطِعِمْ فِي غَمْدِهِ
إِنْ رُمْتَ تَقْتُلْنِي فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ مِنْ ذَا يَمَارِضِ سَيِّدَا فِي عَبْدِهِ (١)
ومهما يشك في صحة هذه القصة التي تعددت رواياتها فليس من شك
أن هناك جماعة من الأدباء والشعراء تغيرت آثارهم كما تغيرت عليهم
آثار البيئة .

(٣) الثقافة والتربية ، فالهذب المثقف يكون أعمق تفكيراً ، وأحسن
ترتيباً للمعاني ، وأحرص على جمال التصوير ، وصفاء التعبير ، وبذلك تغز
معانيه وتهذب عبارته ، ويتوافر له الملازمة بين الألفاظ والمعاني . والجاهل
الذي لم تصقله التربية أو لم يزود بثقافة كافية ، يقف عند حدود الطبع ويتوجه
في الغالب إلى جمال اللفظ وإشراق الديباجة لعلها تعوض عليه ما فاتته من
ابتكار المعاني والقوص وراء الأفسكار . ولذلك وجد في الأدب العربي
طبقات من كتاب العصر العباسي باغوا بالترسل مكانة مهذبة ، وتأثر شعرهم
بذلك التهذيب والصقل كما يقول ابن رشيقي : « والكتاب أرق الناس في
الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيعاً ، وأحلام ألفاظاً ، وألطفهم معاني ، وأقدرهم
على تصرف ، وأبعدهم من تكلف » (٢) وليس من شك أن ثقافة الجاحظ مما
يميزه من البديع والخوازمي . كذلك وجد شعراء المعاني الذين أغنوا بها
الشعر كأبي تمام والمتنبي وابن الرومي كما وجد الممتازون بجزالة اللفظ ورقته

كالبعثري والشريف الرضوي، حتى أن أبا تمام إذا فرغ لطبعه وترك التكلف أتى بالعجب، ودل على شخصية تجيد التفكير، وتحسن التعبير لما ظفر به من ثقافة إسلامية جديدة أخصبت عقله، وأكثرت معانيه. ولا شك أنك تجد فرقا واضحا جدا بين أدباء مصر الذين عاشوا أول هذا العصر الحديث وبين من يعيشون بيننا الآن، أولئك ضعفت ثقافتهم فكانت آثارهم لفظية وهؤلاء ظفروا بثقافة قوية متنوعة فجمعوا إلى سلاسة العبارة جدة الموضوعات وثروة المعاني فصار الأدب قيما نافعا.

(٤) الابتكار، فمن الأدباء من يلتفت إلى نفسه. ويشق بها، ويحاول أن يفتح بها أو فيها آفاقا من التفكير أو الشعور أو التخيل ليعرضها كما هي في أقوى أحوالها وأوضح خواصها دون تخرج أو تكلف، ثم يطوع أساليب اللغة لطريقة تفكيره وتصويره فإذا به شيء جديد وشخصية ممتازة وقد يلقي انكارا وعتا، ولكنه ما دام مذهبه قويا خليقا بالبقاء فإن الثورة عليه لا تكون الا فترة تجتازها النفوس لقبول الجديد واقاراره ثم يصبح سبيلا معبدة مسلوكة، وقانونا متبعا محبوبا. وقد لقي أسلوب الجاحظ انكارا ولكنه عاد مدرسة المتأدين، وواجه أبو نواس ثورة ثم عاد هو قدما، ووجد أبو تمام والمتنبي من أخرجهما من زمرة الشعراء. وكم يلقي المجددون من حرب المحافظين ولكن الأصلح منتصر غلاب. هؤلاء المبتكرون هم أصحاب الشخصيات البارزة الذين أنشأوا مدارس أدبية غيرت مجرى تاريخ النظم والنثر وبقيت خالدة على الأيام.

* * *

ومما سبق يمكن ذكر الملاحظات الآتية :

أولاً : أن أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نتيجة طبيعية لمواهبه وصورة لشخصيته هو ، وإذا ، فلا يمكن أن يكون صادقاً ، قوياً ، ممتازاً إلا إذا استمدّه من نفسه وألفه بلغته ، وعباراته دون تقليد سواء من الأدباء لأن كل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره ، وكيفية نظره الى الأشياء وتفسيره لها ، وطبيعة انفعالاته ، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب ، والمقلد يفنى في غيره ويصبح شخصية منكرة ثقيلة على النفس لا تستحق عناية ، ينصرف عنها الناس الى أصلها الأول وبه يكتفون .

نعم هناك كتاب كبار يستطيعون طبع عصورهم الأدبية بطابعهم والتأثير في نفوس الناشئين بقوة أدبهم وبراعة أسلوبهم ، كالجاحظ والبيديع قديما وطه حسين ، والعقاد ، والرافعي ، وسعد زغلول ، حديثا . ولكن ذلك لا يعفى المتأدين من الاعتماد على أنفسهم وإظهار سماتهم الأسلوبية مع الاستفادة من هؤلاء أو من بعضهم .

ثانياً قد يبدو لبعض الناس التردد في أن الأسلوب صورة صادقة لصاحبه حين يرون حسان بن ثابت شجاعاً في شعره ، جباناً في عمله ، والبحري جميل الذوق في أسلوبه قذراً في الثياب ، والمتنبى كريماً في قوله بخيلاً في حياته ، وهذا من غير شك تناقض واضح يمرض ما قيل هنا للرد والتجريح . ولكن الشيء الجدير بالنظر أن هذه النصوص الأدبية التي تعد مظهراً قوياً لميزات الأديب وسماته قد صدرت عنه في حالة نفسية خاصة هي حال الانفعال والتنبه العاطفي ، ولطآن الوجدان على العقل . فيقول ما يشاء بوحى الساعة ، حتى إذا تاب الى عقله عاش بطبيعته الماقلة الأصلية دون الشاعرة الطارئة . وربما أنكرت حياته الثانية حياته الأولى مما يعد

شبيها بانقسام الشخصية^(١) فالأسلوب الأدبي معرض الشخصية الانفعالية التي تسيطر على الانسان سواء أكان منشأ يصدر عن عواطفه المستيقظة أم قارئاً ثارت عواطفه لآثر ما قرأ من أدب قوى صادق فصدرت عنه لذلك حركات أو أعمال ، أو أقوال طريفة غير مألوفة وقد تنبه لذلك ابن الاثير^(٢) حيث يقول ما نصه : « وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال حتى أنها ليسمح بها البخل ، ويشجع الجبان ويحكم بها الطائش المتسرع ، ويجد المخاطب عند سماعها نشوة كنشوة الخمر ، حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو اقدام على أمر مهول . وهذا هو السحر الحلال المستغنى عن القاء العصا والجلال » فاذا كان ذلك شأن السامع فكيف بالمنشئ الذي صدر عنه هذا الكلام الساحر ، وكان ثمرة انفعاله الأصيل وعاطفته الابدائية ؟

ثالثاً : أن يبان هذه الصلة بين الأديب وأسلوبه وتوضيح جوانبها يقتضينا أن نعالجها من وجهين : —

الأول : أن نعرض بعض النصوص الادبية لجماعة من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو المؤلفين . ونحاول تعرف شخصياتهم المتباينة استنباطاً من هذه النصوص .

الثاني : أن نعرض أننا نعرف هذه الشخصيات ثم نتبين مظاهرها المختلفة في الأسلوب : ألفاظه وتراكيبه وصوره اللفظية وهذا ما نحاوله في الفصلين التاليين .

وليس من شك أن هذين الوجهين شيء واحد أمام الناقد الذي لا يعرف غير النصوص الأدبية التي يدرسها . فالنصوص أمامنا كالدينار هو واحد ولكنه ذو وجهين . نرى في كل منها شكلا خاصا يخالف الآخر وإن كانت المادة واحدة ، كذلك نحن أمام الآثار الأدبية ، نقلبها على وجهين نرى فيها من وجه شخصية الكاتب . وتبين أثر هذه الشخصية فيها من وجه آخر .

وسبب هذا اللجوء والاحتياال أننا في الأصل لا نعرف هذه الشخصيات إلا من الآثار الأدبية فنضطر إلى الوقوف عندها لمعرفة كل شيء على أنه لو أتبع لنا تعرف شخصيات الأدباء الفنية . عن طريق أخرى كالعشرة الصادقة ، ثم كانوا طبيعيين في تعبيرهم تبين لنا صدق هذه الصلة التي ندعيها بين الأدباء وبين ما ينتجون من أساليب .

الفصل الثالث

دلالة الأسلوب على الشخصية

نحاول في هذا الفصل أن نتعرف بعض عناصر الشخصية الأدبية من النصوص الكتابية والخطائية ، والنظمية . ويلاحظ أن عناصر هذه الشخصية لا تظهر جميعها للقارئ ، إلا إذا درس آثار الأديب أو أكثرها قراءة نقدية عميقة ثم وازن بينه فيها وبين غيره وبخاصة في الفنون المشتركة بينهما ليعرف كيف يختلف الأدباء في تفسير الأشياء والتعبير عما يتصورون ومن هذا الاختلاف يفرق بين الشخصيات . وليس من المستطاع أن نورد هنا جملة صالحة لكل أديب ونجعلها معرضا للدرس والاستنباط . فذلك من عمل القارئ الذي يجد في الكتب والدواوين كفايته . وحسبنا أن نورد في كل فن ثلاثة أمثلة جزئية متوخين أن نتحد في الغرض ثم نتلمس فيها ما يميز أصحابها . على أن يكون ذلك مثالا يقاس عليه .

أولا: في الشعر

قال أبو تمام يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات:—

لئن هممتُ أوجدتني في تقلبي ما لا لقد أفقدتني منك موئلا
وإن رمتُ أمرا مدبر الوجه إنني لأترك حظا في فنائك مقبلا
وإن كنتُ أخطو ساحة المحل إنني لأترك روضا من جداك وجدولا

كذلك لا يُلقى المسافرُ رحلهُ إلى منقلٍ حتى يَخلفَ منقلًا
ولا صاحبُ التطوافِ يعبرُ منها ولا وربما إذا لم يخلُ ربما ومنها
ومنذا يُداني أو يُناني وهل فتى يخلُ عري الترحالِ أو يترحلًا
فُرنى بأمرٍ أحوذى فانى أرى الناسَ قد أثروا وأصبحت مرملا
فسيان عندي صادفوا لي مَطعنا أعابُ به أو صادفولى مَقتلا
وقال البحرى يعاتب الفتح بن خاقان : —

يَريُنِي الشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ وَأَكْبَرُ قَدْرِكَ أَنْ أُسْتَرِيَا
وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى سَبِيلِ اغْتِرَارٍ فَأَلْقَى شَهْوَا ٢
أَكْذَبَ ظَنِّي بَأَنْ قَدْ سَخَطْتَ وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كُذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطًا لَمْ أَكُنْ أَذِمُّ الزَّمَانَ وَأَشْكُو الْخَطُوبَا
وَلَا بَدَّ مِنْ لُومَةٍ أَتَحِي عَلَيْكَ بِهَا مَخْطَا أَوْ مُصِيبَا
أَيُصْبِحُ وَرَدَى فِي سَاحَتِي بِكَ طَرِيقًا وَمَرْعَى مَحَلًّا جَدِيَا ٣
أُيْعِ الْأَحِبَّةَ يَيْعُ السَّوَامُ وَأَسَى عَلَيْهِمْ حَبِيبًا حَبِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ يَشْقُ فِيهِ الْوَدَاعُ الْجِيُوبَا
وَمَا كَانَ سَخَطُكَ إِلَّا الْفِرَاقُ أَفْضُ الدَّمُوعِ وَأَشْجَى الْقُلُوبَا
وَلَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ ذَنْبًا لَمَا كُنْتُ خَالِجِي الشَّكِّ فِي أَنْ أُتُوبَا
سَأُصْبِرُ حَتَّى أَلَاقِي رِضَاكَ إِمَّا بَعِيدًا وَإِمَّا قَرِيبًا

١ - الاحوذى : الخفيف الخاذق . والمشر للامور القاهرة لها لا يشذ عليه شيء

٢ - شعوب : الموت ٣ - طرق : خوضته الابل ٤ - السوام امانية والابل الراعية

آسى : أحزن .

أُرَاقِبُ رَأْيَكَ حَتَّى يَصْحَ وَأَنْظِرُ عَطْفَكَ حَتَّى يَثُوبَا (١)

وقال المتنبي يعاتب سيف الدولة الحمداني :-

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فَيْكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ
أَعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَعْنُهُ وَرَمُ
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عَنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مِنْ يَدِهِ صَمَمُ
أَنَا مُلءُ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسِيرُ الْخَلْقُ جَرَّأَهَا وَيُخْتَصِمُ (٢)
وَجَاهِلٍ مَدَّةً فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فِرَاسَةٍ وَفَمُ (٣)
إِذَا رَأَيْتَ نِيوبَ اللَّيْلِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنِّي أَنَّ اللَّيْلَ يَبْتَسِمُ
الْخَلِيلُ وَاللَّيْلُ وَالْيَدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسِّيفُ وَالرَّمْحُ وَالْقُرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
يَا مَنْ يَعَزُّ عَلَيْنَا أَنَّ تَفَارِقَهُمْ وَجَدْنَا نَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ
مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِيمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ (٤)
إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالِ حَاسِدُنَا فَمَا لِي جُرْحٍ إِذَا أَرْضَسَاكُمْ أَلَمُ
وَيَنْبَنَّا لَوْرَعِيَّتِهِ ذَاكَ مَعْرِفَتُهُ إِنْ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ ذِمَمُ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عِيًّا فَيُعْجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالسَّكْرُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي أَنَا الثَّرِيَّا، وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ (٥)

١ — يثوب : يعود ٢ — شواردها : نوادرها يريد أشعاره ، جراها أي من أجلها ،
يقول أنا ملء جفوني عن شوارد الشعر لاني أدركها سهلة متى شئت ، وغيري من الشعراء
يسرون ويتخاصمون علي ما يتاح لهم منها لغزته عليهم . ٣ — يد فِرَاسَةٍ : باطشة ٤ — أمم :
قريب ٥ — يريد أنهما بعيدان عنه كبعد الشيب والهرم عن الثريا وهي النجم المعروف

هذا عتابك إلا أنه مِيقَةٌ قَدْ ضُمِّنَ الدُّرَّ إِلَّا أَنَّهُ كَلِمٌ (١)

موضوع القصائد واحد ، هو العتاب ، والأصل فيه تصوير الوفاء والبقيا على ماضى الصداقة ، ثم الأسف والاستنكار لما حدث . لهذا كان موقفا دقيقا يحتاج إلى براءة ، حتى لا يعود هجاء وقطيعة ، وحتى يجمع صاحبه بين الوفاء لصديقه ، والاتصاف لنفسه فلا يفرط في اللوم فيعود خشنا ثقيلا ، ولا يفرط في الانتصاف فيعود هينا ذليلا . ومع هذا فقد وقف كل من هؤلاء الثلاثة موقفا ادبيا يدل على شخصية واضحة ممتازة .

(١) فأما أبو تمام فكان واقفا في منتصف الطريق لم يقرب من

صاحبه جدا ولم يبعد عنه كذلك ، وأخذ يعرض عليه الأمر مستأذنا ، راضيا بما يقع ، مشيرا إلى إثارة علي سواء وهم كثير ، معنيا بنفسه وبفنه يصنعه بدقة وإتقان ، يوسط عقله بينه وبين صديقه . وإذا كان لا بد من ذكر ميزاته الشخصية كما تشير هذه الأبيات فأبو تمام ، إنسان ذكى ، حذر ، يعقد بقلبه فيخل به ، ويؤمن بعقله فيعتمد عليه ، مخلص لنفسه وفنه أكثر من عنايته بالناس ، يرضى بما يكون ، ويقتصد في اتصاله بالحياة ، قوى الطبع مؤمن بالقضاء .

(٢) وأما أبو عبادة البحرى فقد تقدم إلى صاحبه يكاد يحتضنه ،

ويلقى بنفسه بين يديه ، لولا براءته من الذنوب ، واعتزازه بأن الحق في جانبه ، قد ملك عليه الأسف والطمع نفسه ، فعجب أن يرتق ورده ، وصمم على البقاء حيث كان واثقا من ظهور الحق ومعاودة العفاء . البحرى ، إذا

رفيق الطبع ، جميل الذوق ، لين الجانب ، وفي ، حسن الظن بالأيام ، بارع ، شديد الاتصال بالحياة ، قريب المثال ، طبعى الفن ، متفائل ، ليس في حذر أبى تمام ولا سخط المتنبي .

(٣) وأبو الطيب شيء آخر فقد نذر من صاحبه سخطا ، متوعدا ، متعاليا ، يرميه بالغفلة والتحيز معتزا بنفسه فخورا بخلقته وفنه مزدريا الرؤساء والشعراء ، ولا هم ظهره غير مباليتهم إذ لم يحسنوا تقديره ، ولم يدركوا مكائده ، ولذا ، يودعهم نادمين . وسبب ذلك دالة له على سيف الدولة ، وعرفانه مكانة نفسه . وهذه السعاية التي خضع لها أمير حمدان . فالتنبي ، جاف ، الطبع ، طموح ، مغرور ، بعيد الأمل ، قليل الوسائل ، ساخط على الحياة والأحياء ، يؤمن بالقوة ويعتز بها ، يثق بشعره إلى أبعد حد ، ولا يرى نفسه دون الملوك ولا من طراز الناس .

ولعل البحتري أرق الثلاثة وأرضاهم ، والتنبي أجفاهم وأسخطهم ، وأبو تمام أوسطهم وأشدهم حذرا واحتياطا . وقد سئل الشريف الرضي عنهم فقال : « أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحتري فواصف جوذر وأما المتنبي فقائد عسكر . »^١

ثانيا : الخطابة^٢

خطب على ابن أبي طالب في استنفار الناس إلى أهل الشام فقال : —
أف لكم ! لقد سمت عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا
وبالذل عن العز خلفا ، وإذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم

١ — المثل السائر ، ص ٣١٥ والجوذر ولد البقر الوحشية مثل به ظرف شخصيته ٢ — راجع

من الموت في غمرة ومن الدهول في سكرة ، يرتج عليكم خوارى
فتعمهون ، ^١ فكان قلوبكم مألوسة ، ^٢ فأنتم لاتعقلون ، ما أنتم لى بثقة
سجيس الليالى ، ^٣ ولا زوافر ^٤ عزيفتقر اليكم ، وما أنتم الا كابل ضل
رعائها ، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر ، لبئس ، لعمر الله ،
سر ^٥ نار الحرب أنتم ، تكادون ولا تكيدون ، وتنتقص أطرافكم
فلا تمتعضون ، لا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون . . . أيها الناس ، ان لى
عليكم حقا ، ولكم على حق ، فأما حقكم فالنصيحة لكم ، وتوفير فيكم ^٦
عليكم ، وتعليمكم كي لاتجهلوا . وأما حقى عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة فى
المشهد والمغيب والا جابة عندما أدعوكم ، والطاعة حين آمركم .

وخطب معاوية حين قدم المدينة عام الجماعة ^٧ فحمد الله وأثنى

عليه ثم قال :-

أما بعد فاني ، والله ، ما وليتها ^(٨) بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة
بولايتى عليكم ، ولكنى جالدتكم بسيفي ^(٩) هذا مجالدة ، ولقد رضت ^(١٠)
لكم نفسى على عمل أبى قحافه ^(١١) ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك
نفارا شديدا ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت على . فسلكت بها طريقا
لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فان لم تجدونى خيركم
فانى خير لكم ولالية . والله لأحمل السيف على من لاسيف له ، وان لم
يكن منكم الا ما يشتقى ^(١٢) به القاتل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذنى ^(١٣)

١ - يرتج - يعلق فلا تهدوت لفهمه ٢ - مألوسة : مختلطة مضطربة ٣ - طول الليالى أى
ابدا ٤ - جمع زافرة . غشيرة الوجل او ركن البناء ٥ - الوقود ٦ - الخراج وما يجوبه بيت
المال ٧ - هو عام ٤١ هو فيه صالح معاوية الحسن بن علي ان يبقى معاوية خليفة ٨ - أى الخلافة
٩ - أى ضاربتكم به ١٠ - ذلك ١١ - يعنى ابا بكر الصديق ١٢ - يذهب غيظه ١٣ - خلف اذنور
أى اطرحه ولا أباليه

وتحت قدمي ، وان لم تجدوني أقوم بحققكم كله فاقبلوا مني بعضه ، فان
أتاكم مني خير فاقبلوه ، فان السيل اذا جاء أثرى ^(١) ، وان قل أغني .
وإياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .

ومن خطبة زياد بالبصرة : —

أما بعد فان الجهالة الجهلاء ^(٢) والضلالة العمياء ^(٣) ، والنفي الموفى بأهله
علي النار ، مافيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حماؤكم ، من الأمور العظام
ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله
ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الاليم
لأهل معصيته في الزمن السرمدي ^(٤) الذي لا يزول . أتكونون كمن
طرفت عينيه الدنيا ^٥ . وسدت مسامعه الشهوات ^٦ . واختار القانية
على الباقية ، ولاتذكرون انكم احدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا
اليه : من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . . اني رأيت آخر هذا
الأمر ^٧ لا يصلح الا بما صالح به أوله . لين في غير ضعف ، وشدة في غير
عنف ، وأنى أقسم بالله لا أخذت الولي بالمولى ^٨ والمقل بالظاعن ^٩
والمقبل بالمدير ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقي
الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد ^{١٠} أو تستقيم قناتكم ^{١١}
أيها الناس انا أصبحنا لكم ساسة . وعنكم ذاده . نسوسكم بسلطان الله
الذي أعطانا . ونذود عنكم بني ^{١٢} الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع

١ . أثرى . أغني ٢ - الشديدة ٣ - الشديدة المهلكة ٤ - الدائم ٥ - جملة لا يبصر شيئا
ولا يضي الا بها ٦ - سار أسير شهواته ٧ - الحكومه الاسلامية ٨ - أعاقب السيد بذنب
خادمه ٩ - الطاعين ١٠ - المسافر ١١ - مثل يضرب في تابع النار ١٢ - القنات الرميح او عود
يشبهه والمراد ان يستقيموا في سلوككم ١٢ - الظل يستعان للسلطان

والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما أولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفئتنا
بمناصحتكم لنا . واعلموا أني مها قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست
محتجيا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقا
عن إبانة ، ولا مجرراً لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم
ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي اليه تأوون ، ومتي يصلحوا تصلحوا
ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم
ولا تذركوا له حجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم ،
أسأل الله أن يعين كلا علي كل .

هذه الخطب الثلاثة تدور حول الحكومة الإسلامية وقرارها بعد
الثورة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان ، والنزاع بين علي ومعاوية ، ونشأة
الأحزاب السياسية وعداية معاوية وأعدائه بإقرار الحكومة في البيت
الأموي .

(١) فاما علي فساخط على العراقيين ، يأس من صلاحهم ، يرميهم
بالجبن والغفلة والهوان ، لا تجمعهم كلمة ، ولا يفضيئون لكرامة ، ومع
ذلك يبين لهم هذه الصلة التي تربطهم بهم . وهذه الخطبة صورة لكثير
من آثاره الخطائية التي ألقاها إبان النزاع على الخلافة وهي تدل على شخصية
علي ، فقد كان شجاعاً ، قوى البأس ، ذكي الفؤاد ، واسع العلم شديد الإيمان
متخرجاً في الدين حذوا علي المسلمين حزيناً على حقه المسلوب صريحاً
في القول ، غلبت نزعته الدينية علي كيانته السياسية حتى غلب علي أمره .
بعكس معاوية . وكان مثله الاعلي قائماً علي الشجاعة والتخرج في الدين مع

دالة على المسلمين لمكاته من الرسول وماضيه في خدمة الاسلام . لم يظفر من العراقيين بشعب يعتمد عليه ويخلص له فماش مجاهداً حزينا ومات دون تحقيق ما ربه :

(٢) وأما معاويه ، فقد كلم أهل المدينة بلغة المنتصر الشامت ، الذي يرميهم بدم الكفاية لحسن سيرة الحكماء فيهم لانهم تغيروا وفسدت نفوسهم فلا بد من سياسة جديدة تلائم نفسياتهم الجديدة ، وهي تقوم على الحيلولة بينهم وبين السياسة العليا ورضاهم بالواقع . وحمله على سفه الكلام . واعتداده بالسلوك العملى .

فهو شخصية سياسية حليلة ، عملية مرنة ، تصطنع الاناة ، وتبرر الوسائل فى سبيل الغايات لم يتشبث بتخرج على وسرعة غضبه ، اعتمد على عقله اكثر من قلبه ، تلمسه حريرا ولكنك تلبسه شوكا وقتادا . هذه هى الشخصية السياسية المرنة التى غلبت شخصية على المتحرجة فكانت النتيجة انتصار البراعة الاموية على الشجاعة الهاشمية .

(٣) واكن زيادا رفع في وجوه البصريين — والعراقيين جميعا — سيفا صارما . واقبهم بأيد خشنه . وأقام عليهم الحجة بما عملوا من آثام ثم رسم الخطة التى يحكم بها مقلدا عمر بن الخطاب ومتجاوزة فى الشدة اذا أخذ بالشبهة وفرض النظام فرضا فلا مفر للناس من اعتناقه ، وان تهادنوا فالسيف أو الباطل يخوضه ليصل الى الحق ، زياد — كهتتر وموسوليني ومصطفى كمال — حازم الراى ، صارم الزيمة ، ذكي عملي ، اذا اقتنع بالراى فرضه ، حاد الذكاء واللسان ، منظم التفكير حسن التدبير ، هو وسط بين عمر بن الخطاب والحجاج فى سياسته ، مخلص لمصالح الدولة ، غضب من الناس

والزمهم ما شاء ولكن علياً سخط عليهم وتعاشاهم فكان زياداً صلح حاكم للعراقيين .

ويمكن تلخيص ذلك في أن علياً شجاع ساخط ومعاوية سياسى بارع وزياداً حاكم حازم .

ثالثاً : الكتابة

للجاحظ^١ رسالة الترييع والتدوير التي كتبها الى احمد بن عبد الوهاب: كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا ونحسبه لسعة جفرتة^٢ واستفاضة خاصرته مدورا . وكان جعد^٣ الاطراف . قصير الأصابع وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة وأنه عتيق^٤ الوجه أخمص^٥ البطن ، معتدل القامة ، تام العظم . وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد^٦ رفيع العماد عادي القامة . عظيم الهامة . قد أعطى البسطة في الجسم والسعة في العلم . وكان كبير السن متقدم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد ، وكان ادعاؤه لأصناف العلم علي قدر جهله بها ، وتكلفه للابانة عنها على قدر رغبته فيها ، وكان كثير الاعتراض لهجاء^٧ بالبراء ، شديد الخلاف ، كلنا بالمجازبة متتايعا في العنود ، مؤثرا للمغالبة ، مع اضلال الحجة ، والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف والمحاكمة مع الجهل بشرة المرء ، ومغبة فساد القلوب ، ونكد الخلاف ، وما في الخوض من اللغو الداعى الى السهو وما في المعاندة من

١ - رسائل الجاحظ للسندوبي ص ١٨٧ — ٢ - وسطه — ٣ - ماتو — ٤ - جميل

٥ - ضامر فارغ — ٦ - باطن الفخذ — ٧ - لازم له

الأثم الداعي الى النار . وما في المجاذبة من النكد ؛ وما في المغالبة من فقدان الصواب ، وكان قليل السماع ^١ وصحفيا غفلا ^٢ لا ينطق عن فسر وثيق بأول خاطر ولا يفصل بين اعتزام الغمر . واستبصار الحق . يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها : ويحسد العلماء ، من غير أن يتعلق منهم بسبب وليس في يده من جميع الآداب إلا الاتحال لاسم الأدب ... أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك . قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد علي شيء حسدك علي حسن القامة . وصخم الهامة ، وعلى حور العين ، وجودة القد وعلى طيب الأحذوثة ، والصنعة المشكورة ، وأن هذه الأمور هي من خصائصك التي بها تكلف ، ومعانيك التي بها تلهج . وإنما تحسد أبقاك الله ، المرء شقيقه في النسب . وشفيعه في الصناعة ، ونظيره في الجوار علي طارف ^٣ قدره أو تالد حفظه أو علي كرم في أصل تركيبه ومجاري أعراقه . وأنت تزعم أن هذه الممانى خالصة لك . مقصورة عليك وأنها لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك ، وأن لك الكل ولداس البعض وأن لك الصافي ولهم المشوب . هذا سوى الغريب الذي لا نعرفه ، والبديع الذي لا نبلغه ، فما هذا الغيظ الذي أنضحك ، وما هذا الحسد الذي أكرمك وما هذا الاطراق الذي قد اعتراك ، وما هذا الهم الذي قد أضناك ؛

وكتب بديع الزمان ^٤ الهمذاني إلى أبي الطيب في شأن شخص متغير عليه :—

أنا — أطال الله بقاء الشيخ الامام — بصير بأبناء الذنوب ، وأولاد

١ .. عديم التجارب ٢ مجرد من الزايا والصحفي من اخذ علمه من الصحف ولم

يلق العلماء ٣ الحديث وضده التليد ٤ رسائل بديع الزمان ص ١٠٦ طبعة بيروت .

الدروب ^(١) أعرفهم بشامة ، وأثبتهم بعلامة ، والعلامة بينى وبينهم أن
يفسدوا الصنيع على صانعه ويحرفوا الكلام عن مواضعه ، ويرموا في الحكاية
سهم الشكاية ، ويحيلوا في الشكاية قدح النكاية ، ^(٢) ثم لا يرون النكاية
إلا السعاية ، وإن أعوزهم الصدق مالوا إلى الكذب ، وإن حلم لهم الجدل
عرضوا باللعب ، ومن علاماتهم قببح مقاماتهم . وإيراد ظلاماتهم موارد
النصيحة لكبرائهم . ومن آياتهم كثرة جنائياتهم على الفضلاء وشدة حنقهم
على من لم يخطرهم ببالة ، ولا يحط بهم في حباله ، ^(٣) فإذا انضاف إلى ضيق
أكنافهم سعة آنافهم ^(٤) وإلى قببح مقاماتهم صغر قلماتهم وإلى خبث محضهم
خبث منظرهم ، وإلى صغر خدودهم ، غلظ جلودهم ، ^(٥) وإلى لين فقاخرهم
غلظ ألواحهم ، فذلك من أعلى القوم طبقة في السفال ، وأبعدهم غاية في
النكال . والذي غلظني القاضي في معناه ، جلى في باب ما حكاها ، ويجمع هذه
الخصال وقيادة ، وينظم هذه الأوصاف وزيادة ، فلم يبعد الشيخ عن مثله
أن يكذب ، الطهارة أصله أم نجاسة نسله ، أم حصانة أهله أم رجاحة
عقله أم ملاحاة شكله ، أم غزارة فضله ؟ ولم يجوز على ما حكاها ؟ ألم يؤوني
طريدا ، ويأمنني حميدا ، ^٦ ويؤنسني وحيدا ، ويصطنعني ^٧ مبديا ومعيدا ،
وكان بقدري أنه إذا رأى أفعل شنيعا أو سمع أني ألفظ بنكر لم يأل ^٨
في تحسين أمري فعل الوالد بولده من جهته . ونظر المولى لصنيعه أقرب .
والآن اذ عاد الأمر إلي العتاب فهل إلي الحساب ، ان كنت أخلت بطرف

١ — اللقطاء ٢ — أي أنهم حين يشكون ظلما يدسون لغيرهم ٣ — أي لم يتصرف لهم

ويحرمهم ٤ — مطمع مع المعجز ٥ — التكبير مع الهوان ٦ — حميد أي محسود مهمل

٧ — يحسن إلى ٨ — لم يقصر

من طاعتي من جهة فقد نقصني ما عودني من وجوه . وذلك أنه كان لا يتجاسر أحد على أن يغريني ^١ عنده ، فقد صار يغريني عنده ويبري جلده ، وكان يقوم قناني ^٢ فقد صار يحبط حسناتي ، وكان يشر مالي فقد صار يبطل آمالي ، وكان يحشد ^٣ لأمرى احتشاده لأمره ، فقد نبذت وراء ظهره . وقد كان يحتمل فقد صار يتحامل ، وكان لا يضايقني في الأوف من الدراهم والدنانير ، فقد ضايقني في الشعر في حمل بعير ، وللعبودية ذل اليهودية ودل المرودية ، ^٤ والإدلال مع الإذلال ^٥ والطاعة مع الإفضال ، ^٦ فليستأنف الشيخ حال المولى ليستأنف حال العبد ، ^٧ والله من وراء التسيديد ^٨ ونعم الوكيل ومن فصل كتبه ابن خلدون ^٩ — في أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب — وكان في ذلك متأثرا بمصيبة بربرية أو تركية سلبت الملك من العرب ، وبجالية من عرب المغرب الجاهلين : —

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم ، فصار لهم خالقا وجبة وكان عندهم ملذوذا . لما فيه من الخروج عن ربة الحكم ، وعدم الانقياد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية للعمران ، ومناقضة له ، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب . وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له ، فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي ^{١٠} للقدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليدهم ويعدونه لذلك ، والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الأوتاد منه

١- يغريني بفتا بنى ويجرحى ٢- يصلح من شأني ويستعيني ٣- بحشد بجمع أي كان يعني بشئني . ٤- المرودية كقول الانسان أمرد ناشئا ٥- أي لا يدل على الامن أدلنى بالانعام علي ٦- أي أطيع من أفضل علي ٧- ليعد النظر في حال صديقه حتى ينظر في حال عبده هذا ٨- التقويم والتوفيق ٩- المقدمة ص ١٦٥ ، مطبعة التقدم ١٠- جمع اتقية : حجر توضع عليه القدر .

ليوتهم فيخربوا السقف عليه لذلك ، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران . هذا في حالهم على العموم ، وأيضا فطبيعتهم انتهاب مافي أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه بل كلما امتدت أعينهم الي مال او متاع او ماعون انتهوه ، فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران . وأيضا فلأنهم يتلفون على أهل الاعمال من الصنائع والحرف أعمالهم ، لا يرون لها قيمة ولاقسطا من الاجر والتمن . والأعمال ، كما سنذكره - هي أصل المكاسب وحقيقتها واذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الأيدي عن العمل وأبدع السكان^١ وفسد العمران . وأيضا ، فانهم ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفساد ودفاع بعضهم عن بعض ، انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا أو مفرما فاذا توصلوا الى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أموالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفساد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقي الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى وحكم الفوضى مهلكة للبشر ، مفسدة للعمران . وايضا فهم متنافسون في الرياسة ، وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من اجل الحياء فيتمدد الحكماء منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقض.

هذه فصول يجمعها موضوع واحد عام هو الانكار والهجاء ومع ذلك فهي دالة على كتاب ثلاثة تمايزين .

(١) أما الجاحظ فقد سلك في رسالته طريق التصوير المضحك ، والسخرية المرة . معتمدا على المقابلات وعرض المتناقضات ، يقاب صاحبه بين يديه ويمبث به قبل أن يقتله ، فاذا به شكل غريب ، وخلق عجيب ، وغرور وحسد ، وجهل ولجاجة ، مع حسن القامة وعظم الهامة وحوار العين وطيب الأحذوثة . . . ثم يلح فيما يتناول ، ويبالغ في سرد السكتة ، ويدس السم في الدسم حتى تركه صورة أوقصة تضحك القارئ وتعجب المتأدبين على مر العصور .

فالجاحظ خبيث ، ما كره عابث ، ساخر ، يفيض عدوه وهو يضحك ملء شديه ، ويقتله وهو آمن مستريح ، دقيق الملاحظة ، واسع النظرة بارع في الأسلوب طبعه ، خير بدخائل النفوس ، لا يبالي ما ضحي به في سبيل فنه وما آربه ، متنوع الثقافة ، فيلسوف الحياة يهزأ بها وبالناس ومذاهبهم وعصبياتهم يتأنى فيما يتناول حتى لا يترك لغيره مجالاً . لا يتحرج ولا يتشدد خبر الحياة من جميع نواحيها فكان صورتها المخلوقة ونفثها الناطقة (٢) وأما البديع فقد هاجم خصمه مباشرة . ونال منه بالسب البذيء لاذرماء بالكذب والجور ، والسعاية ، وسوء الخلق ، وضعة الأصل وضعف العقل . مع سخرية قليلة بأسلوب انكارى عنيف . وأخذ يوازن بين حاله الأولي أيام كان راضيا ، والثانية بعد أن صار ساخطا . . كل ذلك وهو غاضب عابس الوجه حاقط القلب نائر الماطفة ليس فيه هدوء الجاحظ ومروته وسعة صدره وبراعة حيلته ، وسلاسة أسلوبه ، فالبديع ، وإذا

ذكى ، صريح ، قوى الطبع ، عنيف ، هجاء . ، حريص على المال ، ضيق الصدر ، شديد الحس ، ينصرف ذكاؤه إلى التصوير الفني وذكاء الجاحظ منصرف إلى الاحاطة النفسية والجسمية ، كلاهما يردد ، ولكن ترديد الجاحظ استكمال وتجديد ، وترديد البديع تكرار وتصوير . وليس البديع في خبث الجاحظ ومكره وسخريته وإن كانت براعته الفنية ممتازة بجزالة العبارة ، وقوة التصوير .

(٣) وأما ابن خلدون فقد ذهب في مهاجمة العرب مذهب العلماء ، والمناطق ، اذ اعتمد على التقرير ، وإقامة الدعوى ، وتأيدها بالبراهين ، مستعينا في ذلك بما شهد من أحداث ، وعرف من نظريات ، في أسلوب عادى بسيط وموجدة متوارية مكبوتة لا تكاد تظهر ، لا يعمد إلى التكرير والتهويل ، فهو ، إذا ، رجل عالم . وقور ، يلقي الحياة بعقله الفاهم ، هادى ، له عقله الرياضى المنتظم ، بأسلوب رتيب ، لا يتنوع ، كأنه قياس منطقي مقرر لا يسب خصمه ، وإن نال منه بما هو شر من السباب . لم يتوافر له دهاء الجاحظ وبراعته ، ولا عنف البديع وجزالته ، يستملي الحياة ويكتب ، وكلاهما يتصور الحياة ويسطر . هو عالم ، وهما أديبان .

رابعاً - التأليف

وربما لم تكن هناك حاجة إلى الكلام في هذه النقطة بعد ما سبق من أن الأسلوب العلمى - ومنه التأليف - لا يمد معرضاً قويا لظهور الشخصية كما هو الشأن في الأسلوب الأدبى ، إذ العلم يرتكز على العقل أكثر من سواه ، ومظهر العاطفة فيه ثانوى أو شكلى لا غير ، والعقل - مهما متفاوت الناس في قوته وانتظام تفكيره - لا تبلغ أشكاله ، وألوانه ، مبلغ العاطفة ،

التي تعرض علينا الأمزجة ، والأخلاق ، والأخيلة ، والأذواق ، والمذاهب الاجتماعية والأدبية وغيرها . على أن الأساليب العلمية الخالصة لا تكون الفروق اللفظية فيها كثيرة ، ولا قوية ، وربما كان خضوعها لمناهج البحث وموضوعاته أشد وأوضح .

ومع ذلك فليس ما يمنع — اعتمادا على اختلاف مناهج البحث العلمي ، وعلى مقدار تفرد العقل في التأليف ، وأثر ذلك في العبارة — أن نشير هنا إلى مظاهر اختلاف الشخصيات في الكتب العلمية أيضا ، ولكن في إيجاز .

طه حسين في الأدب الجاهلي ، وأحمد أمين في فجر الإسلام وضحاها ، ومصطفى عبد الرازق في البهاء زهير ، ثلاثه مؤلفون ، وزملاء علميون ، تجمعهم رابطة الثقافة العالية ، والقيام على دعم وتنظيم طرائق البحث العلمي في هذه البلاد . ولبكنهم مع ذلك كله يتفانون فيما سلكوه من مناهج ، وفيما تحروا من غاية ، وفيما سطروا من أساليب .

طه حسين يضع مراجعه خلفه ، ومصطفى عبد الرازق يضعها أمامه ، وأحمد أمين يضعها بجانبه .

طه حسين يدعو إلى المناهج الحديثة ، ويتحدى المحافظين مستفزا ثائرا وأحمد أمين يطبق هذه المناهج ، ويقنع المحافظين هادئا معتدلا . ومصطفى عبد الرازق يختار من هذه المناهج ، محتاطا محبوبا رزينا . طه حسين يعرض نفسه فقط ويكتب بأسلوبه القوي ، وأحمد أمين يعرض نفسه وغيره ويكتب بأسلوبه الواضح .

ومصطفى عبد الرازق يعرض العلم والعلماء بأسلوبه الجميل . وإذا أردت

أن تعرف ذلك فارجع الى هذه الكتب التي ذكرت تجد طه حسين داعيا ، جريئا ، متحديا ، يعرض نظرياته وآراءه في سرعة كأنه يريد من الزمن الاسراع ، ويفرض على بنيه الفروض ، يشير الى المراجع جملة ، كأنها معروفة ومقروءة ، ثم يبنى عليها ما شاء من النتائج في ثقة وبراعة لم تسلم من السخرية والفكاهة . وأسلوبه هنا يغلب عليه التقرير العلمى وان لم يسلم من الصفات الأدبية المعروفة . وأحمد أمين هادى ، موضوعي ، مخلص للحقائق ، يسار الزمن ، ويعرض مصادره وشواهده مستشيرا ناقدًا ثم يستعين بها أمامك وينتهى الى نتائج في قصد بأسلوبه العلمى الخالص .

ومصطفى عبد الرازق يجمع الوثائق في أمانة ونظام ، ويعرضها عليك منسقة ، فى سلك منطقي ، وذوق أدبي ، تتحدث بنفسها عن حقيقتها ، وينتهى الى نتائجها دون أن يلح فى الظهور فكأن الحياء الجميل ، والتواضع الجمل ، والحيلة الشديدة قد غلبت عليه فقدم الماضين أمامه كما كانوا وذلك فى أسلوب صاف ، دقيق جميل .

وارجع الى القدماء لترى عبد القاهر الجرجاني — فى كتابه دلائل الأعجاز وأسرار البلاغة — العالم الأديب الواصل بنفسه ، والمعز بمذاهبه البلاغية ، وابن الأثير — فى المثل السائر — الأديب ، المروور الفخور بنفسه دائماً ، والمبرد الجليل ذا الذوق الأدبي الجزل . وهكذا تجد للشخصيات مظاهرها فيما يترك الأدياء من آثار .

الفصل الرابع

أثر الشخصية في اختلاف الأساليب

وأما في هذا الفصل فالمراد بيان آثار هذه الشخصية في الأسلوب .
ومعنى ذلك أننا نفرض معرفتنا ، شخصيات جماعة من الأدباء كتابا وشعراء ،
وخطباء ، ثم نلتبس مظاهر هذه الميزات الفردية فيما ينشئون من نصوص
أدبية . ونقصر الكلام في هذا على نواح ثلاثة : —
الأولى من حيث الألفاظ حين يختلف الأدباء في الألفاظ والجمل ،
والفقر والعبارات .

الثانى من حيث المعانى كالمطابقة بين اللفظ والمعنى ، أو ترجيح جانب
اللفظ على جانب المعنى — وعكس ذلك .

الثالثة من حيث الصنعة حيث يعتمد الأدباء الى الأسلوب الطبعى أو
المصنوع صنعة بديعية ، قوامها ، السجع ، والجناس ، والمطابقة ، ونحو ذلك
وسنحرص هنا على الإيجاز مكتفين بالإشارة الى بعض الأمثلة ومحيلين
الى ما سبق ذكره في الفصول السابقة .

الناحية الأولى

وتتناول الاختلاف في الألفاظ ، والجمل ، والفقر ، والعبارات والمراد
بالألفاظ الكلمات المفردة التى تتألف منها الجمل ، وهى أسماء ، وأفعال ،
وحروف ، ولكنها مع ذلك ذات خواص متباينة : كأن تكون دقيقة
محدودة أو مبهمه مشتركة ، اصطلاحية علمية أو فنية عامة رقيقة أو خشنة ،

عامية أو فصحي ، موسيقية رشيقة ، أو عادية جافة ، لونية أو صوتية إلى نحو ذلك .

وتتألف الجملة من الألفاظ لتؤدي فكرة واحدة تامة . وتكون الجملة اسمة أو فعلية ، خبرية أو إنشائية ، طويلة أو قصيرة ، جزلة أو رقيقة تامة العناصر أو مختصرة ، مثبتة أو منفية ، أصلية أو فرعية وغير ذلك .

والفقرة عدة جمل متصلة تكون فصلا من المقالة ، وهي تقوم على الصلات بين الجمل ، وتنوعها ، وربطها معا ، ففيها الفصل والوصل ، والابحاز والاطناب والمساواة ، وفيها الرابطة اللفظية والمعنوية التي تصلها بما قبلها وما بعدها . وتكون بسيطة سهلة أو معقدة مضطربة ، وهي تختلف بحسب موقعها من الموضوع مقدمة أو نتيجة أو غرضا .

وأما العبارة فهي العنصر اللفظي من الأسلوب . وأهـى هذا الأسلوب اللفظي الذي يقابل الأسلوب العقلي والصوري ، والعبارات تقوم على هذه العناصر المذكورة قبلا ثم تتأثر بمنهج البحث وبالموضوع وبمزاج الكاتب ، وذوقه وطبيعته كلها . والأدباء يختلفون في ذلك كله تبعاً لطبائعهم وأذواقهم ، وثقافتهم وبيئاتهم فترى الموضوع الواحد من الفن الأدبي . يتوارد عليه أصحابه فإذا كل طراز بعينه في اختيار الكلمات ، وصوغ التراكيب والعبارات التي تمثل نفسه وخلقه ودرجة انفعاله . يقول ابن الأثير^١ : « اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج ، ولهذا

نرى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد ، وتري ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى ، وهذا القانون طبعى فى الخطابة والكتابة اذ كانت شخصية الأديب تتخذ من هذه العناصر اللفظية وسيلة للتصير عن طبيعتها ، وعرض مزاياها .

(١) فاذا رجعت^١ الى هؤلاء الشعراء الثلاثة — أبى تمام ، والبحترى والمتنبى — وهم يعتبرون ، تبين لك ، رقة البحترى ، وجزالة أبى تمام ، وقوة المتنبى فى الألفاظ المفردة ، ثم سهولة البحترى وتدقيق أبى تمام وصرامة المتنبى فى الجمل . والبحترى بعد ذلك سلس العبارة عذب الموسيقى ، له ديباجة الحرير واطراد الماء الجارى ، وأبو تمام محكم العبارة ، مركب الموسيقى بطيء متشد يتقن الصنعة ، ويؤلف التراكيب بحكم العقل ، وأما المتنبى فعبارته — كخطته فى الحياة — سريعة موجزة ، عجلي ، لا تبالى بما قد تتعثر فيه من أخطاء وتعقيد ، فاضطراب العبارات عند أبى تمام نتيجة صنعته المقصودة وهو عند المتنبى ثمرة سرعته الشديدة وهجومه العنيف ومع ذلك فاقراً هذه الأمثلة للبحترى .

ذاك وادى الأراك فاحبس قليلا مقصرا من صباية أو مطيلا
قف مشوقاً أو مسعداً أو حزينا أو معينا أو عاذراً أو عذولاً
ان بين الكيب فالجزع فالآ رام ربعا لآل هند محيلا
لم يكن يومنا طويلا بنعما نـ ولكن كان البكاء طويلا

تجد العبارات متدفقة متواصلة ، تمر كالنسيم العليل أو الألحان
العذبة ، لا توقف فيها ، ولا تكلف ، لأن البحترى يستلهم بها طبعه السمع
ونفسه الراضية ، وعاطفته الرقيقة الصادقة ، وذوقه الفنى الجميل 'ولأبى تمام :
لو حارَ مرتاد المنيّة لم يجدْ إلا الفراقَ على النفوسِ دليلاً
قالوا الرحيل فما شككت بأنّها تنفّس من الدنيا تُريدُ رحيلاً
الصبر أجملُ غيرَ أنْ تَلَدَا في الحبِ أخرى أن يكونَ جميلاً
أُظنّنى أجد السبيل الى العزّا ؟ وجدّ الحمام اذا الى سبيلا
ردّ الجروح الصّعبِ أسهل مطلباً مِن ردّ دمعٍ قد أصاب مسيلاً
ذكرتكم الأنوار ذكرى بعضكم فبكت عليكم بكرة وأصيلاً
انى تأملت النوى فوجدتها سيفاً على أهل النوى مسلولا
نرى آثار عقله وصنعتة وحذره وأناته وذكائه (٢) فى التنسيق المنطقى
واحكام التركيب شرطاً وجزاء ، واستثناء ، وترتيباً ، واستنباطاً فعبارته
كل موسيقى المقسمة المشدّه أو الماء الجارى بين الصخور . يتمهل ليظهر
بالمنافذ والمسارب وللمتنبى :-

وللسرّ منى موضعٌ لا يناله نديمٌ ولا يفضى إليه شراب
وللخود منى ساعةٌ ثم بيننا فسلة الى غير اللقاء تجاب (٣)
وما العشق إلا غيرةٌ وطماعةٌ يعرض قلبٌ نفسه فيصاب

١ - راجع فى الفصل السابق ما كتب عن شخصية البحترى ٢ - راجع ما كتب عن شخصية
أبى تمام فى الفصل السابق ٣ - الخود : الفتاة الناعمة والفلاة الصحراء الواسعة . مجاب تقطع

وغير فؤادي للفؤادي رمية وغير بناني للزجاج ركاب^(١)
تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب^(٢)
فهذه الشخصية المجلة الغنية ، الطامحة المتعالية^(٣) قد جعلت الكلمات
قوية متحركة ، والتراكيب موجزة متنوعة والعبارة منساقة بسرعة كالريح
العاصف ، أو الموسيقى الصاخبة ، أو السيل يحرف ما يصادفه لا يبالي كيف
تكون النتيجة .

وتجد نحو ذلك بين جرير والفرزدق . وبين حافظ وشوقي ، والمعقد
والملازني ومطران ، والجارم ، لكل ميزاته الشخصية فيما يقول .

وهؤلاء الكتاب الذين أشرنا إلى صفاتهم الشخصية في الفصل الماضي
— الجاحظ ، والبدیع ، وابن خلدون — وأوردنا شواهد من آثارهم
يفتقرون في التعبير كذلك ، فالجاحظ يتحرى دقة الألفاظ ليحسن الوصف
ويردد الجمل ببعض عناصرها ليستكمل معانيه ويؤكدها ، ويلجأ إلى الازدواج
والتقسيم الموسيقي دون التزام السجع ، ويستخدم الاعتراض داعياً أو محترساً
ويطلب ملحا وراء الأفكار والصور ، ويكثر من المقابلة والتقسيم ، ولكن
البدیع يتخير جزل الألفاظ والتراكيب ، ويكثر من الصور البيانية التي هي
تكرار صوري لفكرة واحدة ، يكثر من البدیع طباقاً وجناساً . يقتبس
لغة الشعر ليوشي بها أثره . سجع قصير ، رعبارته جزلة إيجازية إذا قيست
بعبارة الجاحظ السمعة المبسوطة ، فالرجلان يمثلان مدرستين مختلفتين في
التفكير والتصوير والتعبير . وابن خلدون دقيق الكلمات بسيط العبارات

١ الرمية ما يرمى بالسهم . والبنان أطراف الأصابع والزجاج كؤوس الخمر ٢ - القنا
عيدان الرماح ٣ - المفرد قناة ٤ - اللعب الملاعبة ٥ - اقرأ عن شخصية المتنبي في الفصل السابق

تشيع فيها المصطلحات العلمية والفنية ، رتيب الأسلوب لا ينوعه ، لا يسلم من الركاكز والجفاء ، ولا يترأى فيه الجمال والبراعة ، مبنى بالمعنى أكثر من اللفظ ، نزعتة تقريرية ، فهو من طراز آخر ، وإذا كان لا بد من اختصار ذلك كله فالجأ إلى أسلوبه جميل ، والبديع قوى وابن خلدون واضح وإذا ذهبت تتبين شواهد ذلك بين المعاصرين من الكتاب وجدت أشكالاً شتى من العبارات التى تمثل الشخصيات . فالمازنى سهل جميل ، والعقاد جزل عنيف ، وهيكىل واضح هادى ، والبشرى دقيق اجتماعي ، وهكذا لكل سمة عليه غالبية .

(٣) أما الخطباء فليسوا أقل من زملائهم في هذه الناحية . فهذا معاوية بن أبى سفيان الداهية ، الحليم ، والسياسى البارع ، (١) تقرأ خطبته فتلقى ألفاظاً سهلة وجملات كأنها رسالة مكتوبة ، وعبارات منطقية مطردة كأنها عتاب ، أو خطة للحكم يعرضها رئيس الحكومة على النواب ، لا إغراب ، ولا عنف جعلها المنطق الإقناعي ، وانتعجب العاطفي الحذر أشبه بعقد مصالحة أو قصيدة عتاب .

وزياد بن أبى سفيان الحاكم الحازم ، والقوى الصارم (٢) يعتمد على نوعين من التأثير : المعنوى واللفظي ، فالكلمات جزلة قوية ، والسجع والمبالغة وقوة التصوير شائعة في خطبته البتراء « أما بعد فإن الجمالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والنهى الموفى بأهله على النار ... أتكونون كمن ظرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات » وجمله قصيرة عنيفة ، متنوعة « لين في غير ضعف ، وشدة من غير عنف . فإياي ودلج الليل فاني لا أوتى بمدلج إلا

١- راجع خطبته وما كتب عنه في الفصل السابق ٢- اقرأ ما كتب عنه في الفصل الماضي .

سفكت دمه .. فمن غرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن
نقب بيتنا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً . ، وعبارته ، على العموم
حسنة التقسيم ، والتنويع ، قوية التأثير ، سريعة الحركة ، فهي - كشعر المتنبي -
أوامر صارمة أو مراسيم ملكية . وأما الحجاج بن يوسف الثقفي فقد
أربى على زياد . وتجاوز العنف إلى التهديد والوعيد وإلى الرغبة في الدماء ،
وتنمي المصارع والمهالك . كان الحجاج جاهلياً ، جباراً ، لا يراعي حرمة
دينية ولا يؤمن إلا بالقوة والتخويف ، يقوم الحكم عنده على السيف
ويفترق عن زياد بطغيانه الشديد على الرعية ، مع ضعفه أمام الخليفة عبد
الملك ، ولكن زياداً مع عنفه في الحكم استطاع أن يعرف لنفسه كرامتها
مع معاوية . وعلى أية حال فإن خطبة الحجاج حين ولى العراق ، تعد
معرضاً لصفاته المذكورة ، فالألفاظ ضخمة كالصخور ، والجمل مقتضبة
صاخبة ، والتصوير يمثل الهلاك والبلاء ، والعبارة أقوى من إعلان الحرب .
والتأثير يعتمد فوق ذلك على اقتباس الأشعار وآيات الانذار الراهية :-

أنا ابن جَلّ وطلاعُ الثنايا متى أضعِ العمامةَ تدمر فورني
يا أهل الكوفة إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني
لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمام والمحي . ثم قال
بعد أبيات :-

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بهم فجبدوا
والقوس فيها وترّ عرُدْ مثل ذراع البكر أو أشدّ
لا بدّ مما ليس منه بدّ

ثم يقول : والله لأحزم منكم حزم السلعة ، ولأضربنكم ضرب غرائب
الابل ، فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل
مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ؛
وكان سعد زغلول خطيبا كامل الأداة ، قوي التأثير ، بارع الأسلوب ،
يجمع بين قوة الاقتاع ، وبلاغة الأداء ، ومصطفى النحاس تنلب عليه في
خطابته النزعة التقريرية الوصفية مع صحة المنطق ووضوح العبارة ، ومكرم
عبيد ، يعتمد في التأثير على التصوير البياني ، والخيال الشعري ، فإذا حاول
الاقتناع عاد مقررا ، أو كاتباً أدبيا .

الناحية الثانية

وهناك مظهر ثان لا آثار الشخصية في الأسلوب ، هو مقدار الصلة بين
اللفظ والمعنى ، فمن الأدباء من يطابق بين اللفظ والمعنى ، ومنهم من يعنى
بأحدهما أكثر من الآخر .

(١) والأصل الذي يتصل به هذا المظهر هو أن الغرض من التعبير
والبيان إظهار مافى النفس من الحقائق ، والعواطف والأخيلة وإيصالها إلى
القراء والسامعين ، ووسيلة ذلك هي الأسلوب — أو المبارات اللفظية —
إذا كانت غايته الأفهام أو التأثير أوهما معا . ومعنى هذا أن الواجب على
الأسلوب تحقيق هذه الغاية تحقيقا كاملا ، فلا بد أن يكون صادق الأداء ،
مساويا للمعنى المراد ، لا يزيد ولا ينقص . وقبل ذلك يكون الأديب
المنشئ (١) فاهما ما يريد أدائه ، صادق الشعور به (٢) وعنده الوسائل اللغوية
والتصويرية اللازمة ، فإذا ماتوا فر له ذلك ، استطاع البليغ أن يحقق المطابقة

بين اللفظ والمعنى ، وأن يجعل كلا منهما كنفء الآخر . وأما القاعدة النفسية أو العملية لهذه الظاهرة فهي أن ما يتوافر في نفس الأديب من فكرة واضحة أو انفعال صادق يجذب اليه من الألفاظ ، والعبارات ، والصور ما يلائمه بطريقة تكاد تكون آلية لا تسكف فيها ولا صنعة ، وهذا هو المثال الطبيعي للأسلوب . وفي هذا المعنى يقول ابن رشيق ^(١) : « اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعمور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فان اختل المعنى كله وفسد ، بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه وان كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين الا أنه لا يستفهم به ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأننا لا نجد روحا في غير جسم ألبته . » وهذا الذى ذكره ابن رشيق كما يجري في الشعر ينطبق على النثر تماما : « وبعضهم وأظنه ابن وكيع مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة فان لم تقابل الصور الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس ، فقد بنحت حقها وتضاءلت في عين مبصرها ^(٢) » ويقول ابن الأثير ^(٣) : « اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها

فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدرا في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بالإنفاذ لأنها لما كانت عنوان معانيها ، وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها ، وبالفوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس وأذهب بها في الدلالة على القصد... فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ، ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية إذاً إنما هي بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ، ونظير ذلك إبراز الصورة الحسنة في الحلل الموشية والأثواب المحبرة فإنا قد نجد من المعاني الأخيرة ما يشوه من حسنه بذادة لفظه وسوء العبارة عنه .

والمطابقة بين اللفظ والمعنى تتحقق بالتعبير الطبيعي الذي يترك فيه الأديب نفسه على سجيته السمحة دون أن يعمد إلى صنعة أو تكلف ، فيكون من ذلك المساواة وصدق الأداء وتنوع العبارة حسب الموضوع والشخصية كما سبق ذلك فلا حاجة هنا إلى إعادته أو تمثيله . ونشير هنا إلى أن مظاهر هذه المطابقة كما تترأى في الألفاظ والعبارات ، تظهر أيضاً في الوزن الشعري أو البحر العروضي الذي يختاره الشاعر ، وفي القافية التي يؤثرها على غيرها ^(١) ، وفي الصور الخيالية التي يصورها عواطفه ، ليكون الأسلوب من روح المعنى وعلى مثاله من غير حاجة إلى ركوب الضرورات الشعرية ^(٢) ومع ذلك فإن حاولت الظفر بأمثلة لذلك رأيتها أمثال عبد الحميد الكاتب ، وزيد بن أبيه والبحتري ممن يمدون طبيعيين في التعبير ، ولم يتشبثوا بصنعه . ولم يحبسوا نفوسهم عند تعمق في المعاني ، ولا تكلف في الألفاظ . فهذا البحتري يذكر قتال الأقارب معاً ، وما يلابسه من

عواطف متباينة ، إذ يصطدم الحب والبغض ، والشفقة والقسوة ، وتبرز
الدماء بالدموع ، بأسلوب لا يصلح غيره لتصوير هذه الحالة التي كانت بين
بنى تغلب : —

أَسَبْتُ لِأَخَوَالِي رَيْبَةً إِذْ عَفْتُ مَصَابِيَهَا مِنْهَا وَأَقُوتُ رُبُوعَهَا^١
بِكُرْهِىَ أَنْ بَاتَ خَلَاءَ دِيَارُهَا وَوَحْشَاءَ مَغَانِيهَا ، وَشَتَّى جَمِيعُهَا^٢
وَأَمْسَتْ تَسَاقِي الْمَوْتَ مِنْ بَعْدِ مَا غَدَتْ شُرُوبًا تَسَاقَى الرَّاحِ رِفْهًا شُرُوعَهَا^٣
إِذَا افْتَرَقُوا عَنْ وَقْعَةِ جَمْعِهِمْ لِأُخْرَى دِمَاءُ مَا يُطْلَى نَجِيمُهَا^٤
تَذُمُّ الْفَتَاةَ الرُّودَ شَيْمَةً بَعْلَهَا إِذَا بَاتَ دُونَ الثَّأْرِ وَهُوَ ضَجِيعُهَا^٥
حِمِيَّةَ شَفْبٍ جَاهِلِيٍّ وَعِزَّةَ كَلْبِيَّةِ أَغْيَا الرِّجَالِ خَضْرُوعَهَا^٦
تُقْتَلُ مِنْ وَتَرٍ أَعَزَّ نَفُوسَهَا عَلَيْهَا بَايَدَ مَا تَكَادُ تُطْعِمُهَا^٧
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا قَقَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرْتُ الْقُرْبَى قَقَاضَتْ دِمُوعَهَا
شَوَاجِرَ أَرْمَاحٍ تَقْطَعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرَ أَرْحَامٍ مَلُومٍ قَطُوعَهَا^٨
فَمِنْ آيَةٍ نَاحِيَةٍ نَظَرْتُ إِلَى هَذَا النَّصِّ وَجَدْتُهُ مُطَابِقًا لِمَعْنَاهُ أَحْسَنَ
مُطَابَقَةٍ : بِجَزَالَةِ تَلَاثُمْ مَوَاقِفَ الْحُرُوبِ وَتَقْسِيمَ وَمُقَابَلَاتٍ لِتَصْوِيرِ الصَّلَاتِ
الْمُتَنَاقِضَةِ ، وَصُورٍ تَمَثَّلُ مَامَلِكُ النُّفُوسِ مِنْ تَعَاظُفٍ مَكْبُوتٍ وَغَلٍّ ثَقِيلٍ
بَغِيضٍ وَعِبَارَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ تَرْدَدُ بِعُنَاصِرِهَا اللَّفْظِيَّةِ مَا يَتَرَدَّدُ فِي النَّفْسِ مِنْ

(١) أسبت : حزنت . ربيعة : أصل تغلب . أقوت : خلت (٢) المعاني :

المازل . شتَّى : متفرقة (٣) الشروب . القوم يشربون ، رفه . لين ، شروع . مورد

العين (٤) يطل بهدر . النجيع الدم (٥) الرؤد . الشابة الجميلة . دون الثأر . لم يظفر به

(٦) الشفب نهيح الشر . كلبية نسبة إلى كليب التظلي المعروف

(٧) الوتر الثأر (٨) شواجر أرماع ، رماح متشابكة أثناء المعركة وشواجر الأرحام

صلات القرى التي تجمع المتحاربين .

تيارات عاطفية متنافرة . لذلك نجد اسلوب الشاعر هنا بطيئا بعض الشيء يشبه اعتذار ابي تمام السابق وذلك لاضطرار البحترى الى شيء من الصنعة والجزالة . يحقق به حسن التصوير ودقة التعبير فذلك هو الاسلوب المطبوع .

(٢) ومع ذلك فقد ظهر منذ العصر الجاهلي جماعة من الشعراء^١ عدلوا عن هذه الطبيعة الفياضة ، وعمدوا الى اسلوب الشعر يهذبونه ، ويصقلون لفظه بحذف غريبه أو متنافره ، والحرص على انسجام موسيقاه وتحري مساواته ، والتناسب بين فقره وجمله ، ليكون جزلا حسن السبك مع خلوه من التكلف المقتوت والبديع المقصود ، حتى صار الاسلوب الشعرى صنعة أو فنا يقصد اليه ويعني باحكامه وخلوه من الفضول اللفظي والغلو المعنوي . وكان زهير بن أبي سلمى أنجب تلاميذ هذه المدرسة وكان الخطيئة أنجب تلاميذ زهير وتبعهم بعد ذلك ابو تمام — في بعض شعره — ومسلم بن الوليد ، وعبد الله بن المعتز ممن اخذوا عن السابقين احكام الاسلوب فيما بعد ، واتخذوه حرفة يدوية وعبت اطفال . يقول ابن رشيق^٢ « ومن الشعر مطبوع ومصنوع فالطباع هو الاصل الذي وضع أولا وعليه المدار . والمصنوع وان وقع عليه الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل ولكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح

١- راجع في الادب العربي لظه حسين ص ٢٨٤ طبعة ثالثة والصناعتين ص ١٣٥ — ١٣٦

٢ — المدة جزء أول ص ٨٣ و ١٧٢

والتشيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظ ، أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه واتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام ببعضه ببعض « ومن ذلك قول زهير يمدح هرم بن سنان :

وأبيض فياض يدهم غمامة علي معتفيه ، ماتغب فواضله ^١
أخى ثقة لا يهلك الحمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله ^٢
تراه اذا ما جثته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله
فالشعر بريء من التنافر والاغراب ، مع حذف الفضول ، والقصد في المعنى وحسن التناسق بين الجمل ، وبين المعاني حتى بدا محكما متقنا ملحوم الجوانب قد عمل فيه العقل والذوق بجانب العاطفة . وقدمضي مثال الخطيئة في باب المديح . ويقول ابن رشيق ^٣ : « فأما حبيب .. أبو تمام - فيذهب الى جزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنع المحكم طوعا أو كرها يأتي للأشياء عن بعد ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة . وأما البحترى فكان أملح صنعة . وأحسن مذهبا في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ : لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة . وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنعا من عبد الله بن عبد المعز . فان صنعته خفية لطيفة ،

١ — أبيض نقي من العيوب فياض كثير المطايا . معتفيه . سائله ، تغب . ننقطع ٢ — النائل . ماء . راجع الصناعتين ، ص ٩٨ . ٣ — العمدة جزء أول ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندى ألفت أصحابه شعرا واكثرهم بديما وافتنانا وأقربهم قوافي وأوزانا ولا أرى وراءه غاية لطالبيها في هذا الباب» ثم يقول ^(١) : «وقال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب - المتنبى - انما حبيب كالفاضل العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه ، بعد طول النظر والبحث عن البيئة لا كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتخرج خوفا على دينه. وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء يهجم على ما يريد لا يبالي مالتى ولا حيث وقع».

ونحو ذلك حصل في النثر أيضا ، فلقد كان في صدر الاسلام جزلا طبعيا يرتجل في كثير من الأحيان ويكون فيضا طبعيا لما في النفوس من المعاني ، سواء في ذلك الأحاديث ، والخطب ، والرسائل ، حتى جاء عبد الحميد الكاتب ^(٢) فكانت آثاره طيحية سهلة لا صنعة فيها ولا تكلف ، وكان بجانبه عبد الله بن المقفع ^(٣) يقوم في النثر بما كان يقوم به في الشعر زهير والخطبة وأبو تمام ، في خير شعره. وكان كتاب العصر العباسي الاول — كأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة وإبراهيم الصولي ^(٤) — يحكمون الرسائل ، وينشئون جزلة ، دقيقة المعاني ، عالية الأسلوب ، كما كتب عمرو ابن مسعدة الى المأمون في رجل يستشفع له بالزيادة في منزلته عنده ، وجعل كتابه تمرى لنفسه : «أما بعد فقد أستشفع بى فلان ياأمير المؤمنين لتطو لك على فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يزترقون ، وأعلمته أن

١ — نفس المرجع ، ص ٨٧ ، ٢ ، ٣ — راجع آثارهما في رسائل البلاء التي نشرتها مجلة المقتبس ٤ — راجع تاريخ أدب اللغة في العصر العباسي

أمير المؤمنين لم يجعلنى في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تمدى طاعته والسلام . » فكتب اليه المأمون : « قد عرفنا تصريحك ، وتمريضك لنفسك ، وقد أجنبناك اليها ، ووقفناك عليهما . » وجاء الجاحظ في القرن الثالث فكان استاذ المدرسة خاصة أو كان هو هذه المدرسة الكتابية التي أشرنا اليها فيما مضى . وأما كتاب الصنعة البديعية فقد كانوا في القرن الرابع^(١) الهجرى ، وهم الذين فتحوا بابا كان فيما بعد شرا على الأساليب الأدبية لما دخل فيه المتكلفون العاجزون ، وقد عرفت طرفا من أساليبهم عند بديع الزمان .

وعندى أن هذه الطبقات من الشعراء والكتاب تمثل طورا طبيعيا من أطوار الحضارة الأدبية التي تعنى بالأدب كما تعنى بسواه ليكون أقوم أسلوبا ، وأجمع بين قيمة المعاني ، وقوة الأساليب ، على أنهم كانوا - وبخاصة بعد الإسلام - متأثرين بألوان من الفنون ، والعلوم الإسلامية والدخيلة وبفراغ وتنافس أكسبت الأدب هذا الوضع الفنى الجديد ، فللوم عليهم ولأعتاب ، ولأمانع أن ينضافوا الى السابقين كما يرى ابن الأثير^(٢)

(٣) وبعد ذلك تواجها هذه القضية الكبيرة ، أو المعركة العنيفة ، بين أنصار اللفظ ، وأنصار المعنى ، فإن هذه الثقافة الواسعة التي توافرت للادباء ، منذ العصر العباسي ، مع ذكاء العقل قد حملتهم على العناية بالمعاني فغذوا الأدب بأفكار فلسفية ، وآراء دينية ، وملاحظات دقيقة عميقة ، وكان أبو تمام من أسبق الشعراء وأظهرهم في ذلك ، ثم ابن الرومى ، والمتنبى ، وأبو العلاء في ذخيرته الفلسفية - اللزوميات - وكان من ذلك ، ولا سيما

عند شعراء الصنعة ، أن ضعف روعة اللفظ وسلاسته ، وبذت عليه الجفوة العلمية أو الكلفة البديعية ، وبجانب هؤلاء بقي آخرون محتفظين بالطبع السمع والديباجة السهلة الجميلة كالبحثري وأبي العتاهية والعباس بن الاحنف وظهرت لهم مقطوعات بالغت في السهولة حتى عادت باردة سخيفة.

فكان من ذلك ، ولأسباب أخرى ، أن نشطت حركة النقد ، وانتصر جماعة لكل فريق ، واختلف الباحثون حول هذه المسألة : أين تقع البلاغة : في اللفظ أم في المعنى ؟ وأي هذين الفريقين من الشعراء أظهر بعمود الشعر ، وأجدر بالاحترام ؟ وخلاصة ما يحتاج به أنصار اللفظ ^(١) أن المعاني معروفة للناس ، سهولة الإدراك ، يكفي أن تكون صحيحة ، ولكن البراعة اليبانية إنما هي في الألفاظ وصوغ العبارات . وأما أنصار المعاني فيقولون ^(٢) : إن المعنى هو المقصود بالأداء ، وهو مجال الابتكار ، وحسن التصور ، واللفظ تابعه في ذلك فجاءه من جماله . ويدور جهد عبد القاهر الجرجاني على أن البلاغة في الأسلوب تنتهي إلى نظم الكلام وفق حاجة المعنى ، وبذلك تتحقق المطابقة بينهما ، ويكتسب اللفظ حسنه بصدق أدائه .

واسكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن ، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير كما تركز على قيمة التفكير . ^(٣)

(٤) وعلى الرغم من ذلك فقد وجد من الأدباء من يؤثر اللفظ

على المعنى ، فيجمله غايته ومتجه عنايته ، ويقصد إليه ، فاما أن يجمله — في

١ - راجع مقدمة ابن خلدون ، ص ٦٥٨ ، والصناعتين ، ص ٥٥ ٢ - راجع دلائل الاعجاز ، ص ٤٠ و ٧٠ ، ٣٠٧ و ٣٢٠ طبعة المنار ٣ - صحيفة دار العلوم عدد ٢ من السنة الثانية ، ص ٣٠ للمؤلف ، وفيض الحاطر لجمال أمين ، ص ٣٠١ .

الشعر — نغما مجلجلا . لا يتناسب مع معناه كإبن هانيء الأندلسي
حيث يقول : —

أصاحت فقالت : وقع أجرد شيطم وشامت فقالت : لمع أبيض مخدم (١)
وماذعرت إلا لجرس حليها ولا رمقت إلا بري في مخدم (٢)
يصف امرأة تترقبه، فتوهمت وقع حوافر فرس، ولمع سيف، وإذا بها
تسمع حليها، وتري لمعها . ومن يستمع لهذا الصخب اللفظي يظن أنه حماسة
أو حرب قائمة (٣)

وأما أن يجعله سهلا مفرطا، كما وقع لأبي العتاهية : —

يا إخوتى، إنَّ الهوى قاتلي	فسيروا الأُكفانَ من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى	فاني في شغلٍ شاغل
عيني على عُتْبَةٍ منهتة	يديمها المنسكب السائل
يامن رأى قبلي قليلا بكى	من شدة الوجد على القاتل

فهذا الشعر، كما تري، سهل، لين، ليس بينه وبين النثر العامى فرق
كبير، وللهاء زهير نحو هذا الأسلوب الذي تسمعه، فكانك تسمع
الشعب المصرى في حوارهِ وأحاديثه، جدا وهزلا، في عبثه وأفاكهه، وفي
كل ما يلبس حياته ٤ الوادعة المطمئنة في هذا الوادى الخصب. وكذلك
الشان في النثر فقد غلبت العناية اللفظية على فن المقامات، وصارت بذلك
وسيلة لتعليم اللغة، وتراكيبها، وبعض عباراتها وأما إليها الجزلة وقد أسبقنا
القول في ذلك فلا نعيده هنا .

١ أصاحت : أصغت . أجرد شيطم : الفرس القتي . شامت نظرت أبيض مخدم سيف قاطع

٢ البرى جمع برة كل حلقة من سوار وقرط وخلخال المخدم موضع الخلخال ٣ — العملة

ج ١ ص ٨٠ ٤ — البهاء زهير المؤلف

و كذلك وجد من الأدباء من يؤثر المعنى على اللفظ ، فيعنى بعمقه وكثرته ، وجدته ، وتوليد بعضه من بعض ، ثم لا يعنى بأن يلبسه كفاءه من اللفظ الكاشف الواضح أو السلس العذب ، أو القوى المتين ، فيقع في التعقيد ، أو الخشونة ، أو المهجنة ، أو التكلف المقنوت فيه بدون اللفظ ويبهمون المعنى ، وقد تورط في ذلك — من الشعراء — أبو تمام والمتنبي في بعض شعرهما وكذلك ابن الرومي . ومن الكتاب ابن خلدون والعالم والمؤرخ المشهور ، ونورد هنا بعض الأمثلة ، من ذلك قول أبي تمام .

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسنته آثام

ففي هذا البيت اضمار جعل معناه غامضا علي الرغم من محاولة الدلالة عليه بالشطر الثاني . وتقديره أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة ، فكأنما حسنته آثام ، وذلك من قوله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » وقوله : —

وظلمت نفسك طالبا انصافها فعجبت من مظلومة لم تظلم
معنى ذلك أنك أكرهت نفسك على مشاق الأمور لنيل المجد ،
فهي إذا ، مظلومة من حيث الوسيلة التي كابدتها . ولكنها منصفة من حيث
الذكر الجميل والمجد المؤثر ، فكانت مظلومة لم تظلم ، وذلك من
قول السموأل : —

وان هو لم يحمل على النفس ضيما فليس الى حسن الثناء سبيل
وقول المتنبي يمدح علي بن احمد الطائي بسداد الرأي ، والتفرد
في ذلك : —

ففي ألف جزء رأيه في زمانه أقلُّ جزىء بعضه الرأي أجمعُ

ونظام البيت كما يلي : هو فتى رأيه في زمانه ألف جزء . وأقل جزىء منه ، بعضه هو كل ما عند الناس من الرأى . وقال على بن عيسى الرمانى : « أسباب الاشكال ثلاثة : التغير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبهه ، وسلوك الطريق الأبعد ، وإيقاع المشترك . وكل ذلك اجتمع في بيت الفرزدق : —

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حى ، أبوه يقاربه
فالتغير عن الأغلب سوء الترتيب ، لأن التقدير وما مثله في الناس
حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، يريد بالملك هشام بن عبد الملك ،
والممدوح هو ابراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك . وأما سلوك
الطريق الأبعد فقوله : أبو أمه أبوه ، وكان يحزته أن يقول خاله ، وأما
المشترك فقوله : حى يقاربه لأنها لفظة تشترك فيها القبيلة والحى من سائر
الحيوان بالحياة . قال : وإذا تفقدت أبيات المعانى رأيتها لا تخرج عن هذه
الأسباب الثلاثة » وكتب النقد والبلاغة ملأى بهذه النماذج ، وأما ابن
خلدون فقد مضى فصل من كلامه .

* * *

(٥) ومما يتصل باللفظ والمعنى مسألة الإيجاز والاطناب والمساواة
وقد وردت هذه الألفاظ في كتب البلاغة أوصافا للعبارة ، وعناصرها ، من
حيث ما تؤدي من معان ، فاذا قصر اللفظ عن المعنى كان إيجازا ، وإن
طال لفائدة كان اطنابا ، وإن تساوى كان مساواة أو تقديرا . ولرجال
البلاغة كلام كثير في هذه الأقسام ، وفيما يدخل تحتها من فروع لا حاجة

بنا الى تكرارها هنا . ويمكن الرجوع اليها في المثل السائر لابن الأثير (٢) وسواء ، وقد تناوأتها كتب البلاغة - غالبا - في سياق الجمل والفقر . فمن ذلك في المساواة قوله تعالى ، « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » وقول جرير .

تمنى رجال من تميم منيتى وما زاد عن احسابهم ذائد مثلى
فلو شاء قومي كان لامي فيهم وكان على جهال أعدائهم جهلى
وفي الأيجاز قوله تعالى « ولكم في القصص حياة » وقول امرئ القيس :-

فلو أنها نفس تموت سوية واسكنها نفس تساقط أنفسا
والمراد لو أنها نفس تموت مودة واحدة لها أن الأمر . ولكنها نفس
تموت موتات ، وفي الاطناب قوله تعالى « فانها لا تعمى الأبصار : ولكنها تعمى القلوب التي فى الصدور » ففائدة ذكر الصدور هنا أنه قد علم أن العمى مكانه البصر حقيقة ، واستعماله فى القلب غير متعارف فلا بد من زيادة التقرير ليعرف أن العمى الحقيقى فى القلب لا العين ، وقول البحتري ..
تردد فى خلقى سؤدد سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف ان جثته صارخا وكالبهران جثته مستشيا
فالبيت الثانى يدل على معنى الأول ألا أن فيه زيادة بيانية تميد تخيلا وتصويرا .

ولكننا نشير هنا الى هذه الأوصاف من ناحيتها العامة التى تبدو فى

المباراة اللفظية لمقال ، أو خطبة ، أو رسالة ، أو وصف أو قصيدة ، وفي مقدار ما يصل بينها وبين الأغراض والمعاني كلها مجتمعة ، فمن الكتاب من يؤثر الإيجاز حتى يصل إلى التوقيعات والإشارات . ومنهم من يسهب ويطيل كما في الخطب والمقالات الصحفية غالباً . ومنهم من يساوى ويفلب ذلك في الرسائل والمقالات العلمية . وقد ضرب ابن الأثير مثلاً لذلك في وصف بستان ذي فواكه متعددة ، فلا يجاز هو قوله تعالى « من كل فاكهة زوجان » والاطناب قول ابن الأثير : « جنة علت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت ينبوعها أن تستجدي سماء وهي ذات ثمار مختلفة القرابة ، وتربة منجبة ، وما كل تربة توصف بالنجابة ، ففيها المشمش الذي يسبق بتمدومه ، ويقذف أيدي الجانبين بنجومه ، فهو يسمو بطيب الفروع والنجار ، ولو نظم في جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار . . الخ » كذلك أورد للأطناب مثلاً من الرسائل والتقاليد فلتراجع هناك .

والنثر العصري لا يميل إلى الإيجاز إلا في التوقيعات الديوانية ، والكلمات السائرة ولكنه يمد ذلك أميل إلى الاطناب ثم المساواة ، وحسبه حياة تخلصه النهائي من هذه الصنعة البديعية والأغراب اللغوى ، إلى خير مستوى ظهر به في حياته من ثراء المعاني وروعة الأساليب .

الناحية الثالثة

وهي ناحية الصنعة البديعية ، والتكلف المقصود ، طمعاً في زخرفة الأساليب ، وهوشيتها بالسجع ، والجناس ، والمطابقة ، والاستعارة ، ونحوها من عناصر التحسين اللفظي أو المعنوي . وقد كانت هذه المحسنات ترد في

الشعر القديم قليلة وغفوا دون تكلف، واستجابة لقوة المعنى وصدق تصويره
كقول أبي ذؤيب الهذلي مستميرا:—

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيمة لاتنفع^١

وقول حيان بن ربيعة الطائي في التجنيس:—

لقد علم القبائل أن قومي لهم حد إذا لبس الحديد^٢

وقول زهير في المطابقة:—

ليث يمشي يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا^٣

« فلما أفضى الشعر الى المحدثين . ورأوا مواقع تلك الآيات من

الغرابية والحسن، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللفظ تكلفوا الاحتذاء

عليها فسموه البديع، فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد

ومفرط،^٤ وقد قيل ان « أول من فتن البديع من المحدثين بشار بن برد

وابن هرمة وهو ساقه العرب، وآخر من يستشهد بشعره، ثم اتبعهما مقتديا

بهما كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمرى، ومسلم بن الوليد وأبونواس

واتبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحرى، وعبد الله بن المعتز فانتهى

علم البديع والصنعة اليه، وختم به . »^٥

والذى يعنيننا هنا — فى الشعر — أن هؤلاء الشعراء اختلفوا فى مقدار

عنايتهم بالصنعة البديعية، فاختلفت أساليبهم فى النظم تبعاً لذلك . فأما أبو تمام

فكان — فى كثير من شعره — أشد الشعراء تطائفاً بالبديع، وأكثرهم تكلفاً،

١- التيمة ما يحمله الانسان مخافة الحسد أو الشر ٢- الحد البأس والقوة ٣- تارة مأسدة أى

أنه كاسود هذا المكان ٤- الوساطة، ص ٣٨ ٥- العمدة ج ١ ص ٨٥

ولاسيما الطباق ، والجناس ، والاستعارة ، والتقسيم حتى شوهت شعره ،
 وذهبت بكثير من روعته وجلاله . فاذا لاحظنا أنه أضاف إلى ذلك محاوراته
 الاغراب اللفظي تقليدا للقدماء ، ثم اجتلابه المعاني الغامضة . والاغراض
 الخفية التي احتمل في سبيلها كل غث ثقیل ، علمنا سر ما تورط فيه من
 اضطراب في التعبير ، وتعقيد في الأسلوب ، حتى صار هذا القسم من شعره
 إذا قرىء أجهد الفكر ، وركد الخاطر في فهم معانيه ، وتصور أخيلته
 وأغراضه . وما كان هذا سبيل الشعر ولا أسلوب الفن الجميل ، فصار أبو تمام
 علامة التكلف الثقيل ، والصنعة الفاسدة في قسم من شعره ليس بالقليل .
 ولو أنه جرى مع طبعه ، وجانب التكلف ، مع معانيه المتسكرة وأخيلته
 الجميلة . لكان سيد الشعراء غير مدافع ^(١) . فأنك حين تقرأ له ما ورد أول
 هذا الفصل من الشعر القوي الجميل تعجب كيف يحيد عنه جريا وراء البديع ،
 وتعلنا بالصنعة المقنونة ليقع في مثل هذه الاستعارة القبيحة : —

باشرتُ أسبابَ الغفني بمدايح ضربتُ بأُبوابِ الملوك طبولاً
 ضرام الحبِّ عشتشَ في فؤادي وحضن فوقه طير البيعاد
 كأنني حين جرّدتُ الرجاء له عَضْبُ صَبِيتَ به ماء على الزمن
 أو هذا الجناس المستكره . —

إن مَن عَقَّ والديه للمعوت ومن عَقَّ منزلاً بالعقيق
 فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت سلامُ سليمي وهما أورق السلم
 أو ذلك الطباق المتكلف : —

قد لان أكثر ما تريدُ وبعضُهُ خشن واني بالنجاح لوائح
وان خفرت أموال قوم اكفهم من النّيل والجدوى فكفاءُ مقطعُ
وشر من ذلك هذه المعازلة بتداخل الكلمات، وركوب بعضها بعضا . —
خان الصفاء أخُ خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسمه الكمدُ (١)
وقد وقع المتنبي في مثل ذلك كما ثبت به المتأخرون فافسدوا الشعر
وذهبوا بروائهُ .

وأما البحترى وابن المعتز فقد غلب عليهما الطبع السّمع ، وسهولة
الأسلوب ، وعدم الكد وراء المعاني العميقة والألفاظ الغريبة ، ويتلخص
أسلوبهما في السهولة ، وعدم الشغف بالبديع ، الا ما جاء طبيعيا أو خفيا
لا يكاد يظهر ، ومعنى هذا أن قيمة شعرهما قائمة ، في الغالب ، على جمال الأسلوب
وطبعيته ، وحسن التصوير الخيالي ، فكانا مدرسة أخرى تقابل مدرسة
أبي تمام ، وقد مضت أمثله لشعر البحترى نعيد هنا هذا البيت فقط : —
إذا احتاربت يوما ففاضت دماؤها تذكّرت القربي ففاضت دموعها
نلاحظ فيه هذا التقسيم ، وحسن الترتيب ، والمطابقة الملائمة بين
الشطرين في المعنى ، وهكذا إذا عرض له البديع ، ويقول عبد الله بن المعتز
يصف سحابة ماطرة : —

ومزنة جاد من أجفانها المطرُ فالروضُ منتظمٌ والقطرُ منتشرُ
ترى موقعها في الأرض لائحةً مثل الدراهم تبدو ثم تستترُ

١ . راجع الموازنة بين الطائيين ، ص ١٠٥ - ١٢١ . طبيعة الجواب . ويريد بالبيت
خان الصفاء أخُ خان الزمان أخا من أجله . فلم يتخون جسمه الكمد . أى لم يؤثر الجزن
في جسمه وفاء لآخيه

فيجمع بين الاستعارة ، والمطابقة ، والتشبيه ، ومع هذا لا ترى تكلفا
ثقيلًا ولا تعمقا عويصا .

وبين هذين الطرفين نضع مسلم بن الوليد ، فقد جمع بين الصنعة المعتدلة
وتجويد الشعر والبطاء في صنعة حتى سموه زهير المولدين ^(١) . واستطاع
بذلك أن يفترق من أبي تمام بقرب المعاني من جهة ، وبسلامة عبارته
من الغريب ، والتكلف المقوت ، ولأهم بذلك بين اللفظ والمعنى ، فكان
لشعره موسيقا قوية جميلة ، كقوله يهجو دعبل الخزاعي . -

أما الهجاء فدقَّ عرضك دونه والمدحُ عنك كما علمتَ جليلاً
فاذهب ، فأنت طليق عرضك إنه عرضُ عززت به وأنت ذليلُ
فقد طابق بين المدح والهجاء وبين الدقة والجلالة ، وبين العز والذلة ،
مع جودة المعنى ، وإحكام التراكيب وحسن تقسيمها ، فكان بذلك من
عميد الشعر .

وأما في النثر فقد عرفت مما سبق أن هذه الصنعة البديعية قد انتهت
إلى غايتها المقبولة على يد كتاب القرن الرابع الهجري ، أمثال بديع الزمان
والخوارزمي ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد ، هؤلاء الذين عرفوا
بالسجع والجناس والطباق ، واقتباس لغة الشعر أو تضمين معانيه ، وقد
استطاعوا لاحاطتهم اللغوية ، وقدرتهم الأدبية أن يجعلوا أساليبهم مقبولة
ويخففوا آثار هذه الصناعة ، إلا أن كثيرا ممن خلفهم على هذا الفن
- وبخاصة بعد سقوط بغداد وفي عصر المماليك - لم يظفروا بمكانة السابقين
في اللغة والأدب ، ثم غلوا في البديع فأضافوا إلى ما سبق التورية والاستخدام

والتلميح للحوادث الشهيرة ، ثم التصحيف الذي كان مجال البراعة عند المتكفين . وقد نشأ عن ذلك فساد الأساليب ، وركتها ، والتضحية بالمعاني في سبيل الألفاظ

ويمكن إرجاع ما كان بين كتاب الصنعة ، من خلاف في الأساليب الى أصلين : —

الأول موضوعي حين انتقل بها بعضهم من الرسائل الخاصة ، والديوانية والعامية الى كتب العلم أو مخاطبة الملوك في الشؤون الدولية ، في حين أن هاتين الناحيتين مظهر عقلي أو مصلحي يلائمه الأسلوب البسيط الواضح ومن ذلك أن عماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتب في التاريخ بهذا الأسلوب الذي عاد مغلقة فألف كتابه - الفتح القسي في الفتح القدسي - وصف فيه فتح صلاح الدين بيت المقدس بعارة مسجوعة منها : « ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . وللنصر مصاحبيا ، ولذليل العز ساحبا ، قد أصحب ريش مناه ، وأخصب روض غناه . وأصبح رائج الرجاء ، سيب العزف ، طيب العرف ، ظاهر اليد ، قاهر الأيد ، سنا عسكره قد فاض بالقضاء قضاء ، وملاؤا فافاض الآلاء »

والثاني شطلي حين يختلفون في مقدار حرصهم على المحسنات وما يجمعون منها في رسائلهم وفي طول السجع وقصره ، ودقة الطباق . وطبيعة الأسلوب . وقد رأيت مثالا للبديع يمثل السجع القصير . والقصد في الجناس وملاءمة الطباق . ونورد هنا قسما من رسالة^٢ لشهاب الدين ابن فضل الله العمري - تصور لنا التعلق بالصنعة في غير موضعها ثم الاسراف فيها

حتى عادت غثة غير مقبولة - كتبها بين يدي سلطانها الى نائب الشام صحبة
طيور صيد جوارح أرسلها اليه قال بعد الديباجة: « ولا زالت مواهبنا تخصه
بالمزيد ، وتنفعه بما يريد ، وتجعل له من الجوارح ما تعترف لها السهام بأنها
بغير جناحيه لا تصيب ولا تصيد . صدرت هذه المكاتبة الى الجنب العالى
بسلام جميل الافتتاح . وثناء يطير اليه ، وكيف لا تطير قادمة بجناح ،
ونعلمه أن مكاتبة المقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما يقى من
رسمه وجرت ، عادة صداقتنا الشريفة أن تحسب في قسمه . وقد جهزنا له
الآن ثلاثة طيور لا يبد عليها مطار ولا يوقد المقرى في غير حالها جذوة
نار . ولا تؤم صيدا إلا وترشى بدمه فلا يلحقها بغبار . »